حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السابع . شوال ١٤٣٨هـ / تموز ٢٠١٧م

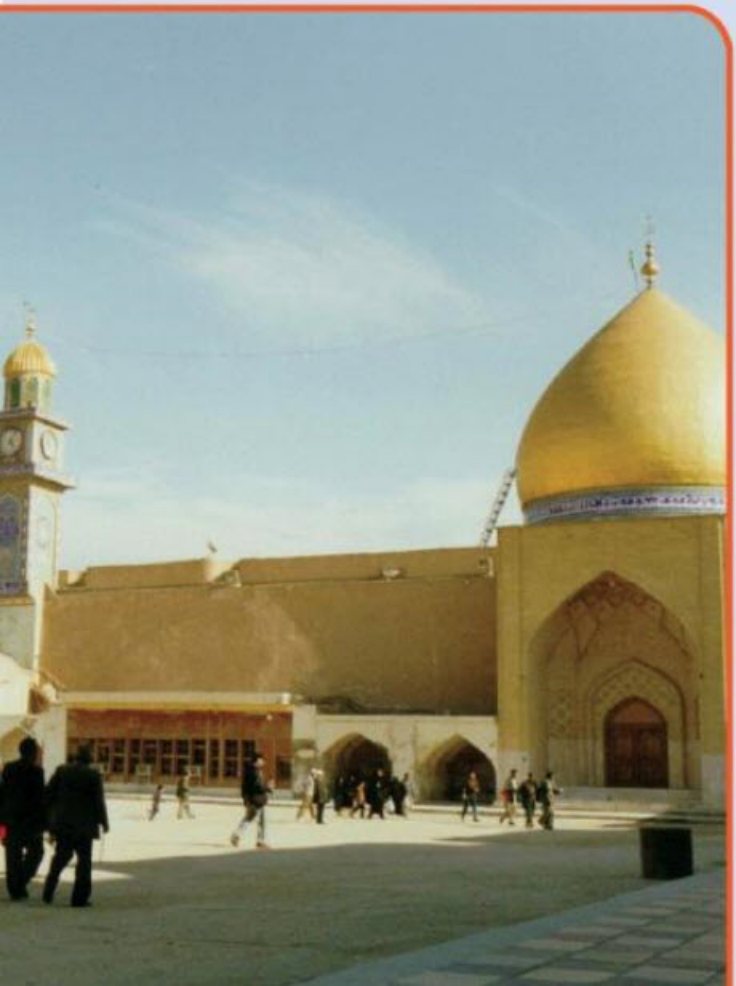

٧

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الحياة الرّوحية في الكوفة في القرنين الأوّل والثّاني الهجريين

الأستاذ الدّكتور علي سامي النّشّار

ويشتمل على سبعة فصول:

الفصل الأول: البيئة الاجتماعية والدّينية للكوفة.

الفصل الثّاني: مدرسة الكوفة السّنية.

الفصل الثّالث: نشأة الزّهد.

الفصل الرّابع: مدرسة الزّهد الشّيعي الأوّل.

الفصل الخامس: التّشيع الزّيدي والحياة الرّوحية في الإسلام.

الفصل السّادس: التّشيع الغالي في الكوفة وأثره في الزّهد والتّصوف.

الفصل السّابع: ظهور كلمة الصّوفي كمصطلح في الكوفة.

الفصل الأوّل

البيئة الاجتماعية والدّينية للكوفة

بنى سعد بن أبي وقاص الكوفة في عام /١٧/ من الهجرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب على أطلال بابل القديمة، لتكون معسكراً للجيش العربي بعد فتحه لفارس، واستقرت بها قبائل من اليمن كان جلهم من المرتدة في أيّام أبي بكر الصّديق، وبخاصة قبيلة كندة، وعلى رأسها الأشعث بن قيس، وليس أدل على بقايا الارتداد في قلب الكوفة، أن يكتشف الصّحابي القديم وقارئ رسول الله عبد الله بن مسعود بقايا لعبادة مسيلمة متنبئ اليمن في قلب الكوفة، كان لم يزل في الكوفة عبادة بن الحارث أحد بني عامر بن حنيفة، والمشهور بابن النّواحة.

وكان ابن النّواحة رسول مسيلمة الكذاب إلى النّبي(ﷺ) في المدينة، وأتى ابن النّواحة الكوفة وأنشأ حلقة تؤمن بمسيلمة وسرعان ما نما الأمر إلى عبد الله بن مسعود، فقتله هو و أصحابه[١]، ثمّ مجموعة من الفرس عرفوا باسم الحمراء، وكانوا قد انضموا للجيش العربي في القادسية، ثمّ عاشوا في الكوفة مع العرب حلفاء لقبيلة عبد القيس الشّيعية.

وكان في الكوفة أو على الأقل في ضواحيها من غير المسلمين بقايا الأديان الفارسية القديمة من مانوية ومزدكية وزرادشتية ومندائية، ثمّ بقايا هذه الفرقة المهمة في تاريخ الحياة الفكرية الإسلامية: الصّابئة، وسيظهر أيضاً في تاريخ حروب علي أنّ النّصارى حاربوا في جيشه، كما كانت هناك بقايا اليهود، ونحن نعلم أنّ التّلمود نشأ في أرض العراق، نما وتطور في واديها وأصبح التلمود بعد قانون اليهود، كانت الكوفة ملتقى لهذه الثّقافات كلّها، كما كانت البصرة تماماً.

ولكن الخلاف بين البصرة والكوفة أنّ البصرة كما يقول الدّكتور كامل الشّيبي: أغلبية مضرية من عرب الشّمال، أمّا الكوفة فكانت أغلبيتها من اليمن، وهذا يشرح لنا لماذا اتصفت الكوفة بالأصالة العربية، والبصرة بالاختلاط والهجنة، فقد كان اليمانيون على جانب من الحضارة، أتاح لهم أن يتغلبوا على الآثار الواردة إلى الكوفة من الحضارات الأجنبية وأن يهضموها، أمّا العنصر العربي الّذي نزل البصرة فقد كان ضعيف الحضارة، فغلبت عليه الثّقافة الأجنبية الّتي قابلته في بيئته الجديدة[٢].

وفي الحق إنّ في هذا الحكم تعميماً قاسياً، فقد كان لكلّ من المدينتين أصالتها بشكل خاص، فقد أخرجت لنا البصرة نماذج من الحياة الرّوحية والعقلية في الإسلام، لا نجدها لدى الكوفة، فمن البصرة خرجت مدرسة العبادة الكبرى، الّتي

(١) الدّكتور: محمّد جابر عبد العال، حركات الشّيعة المتطرفين ص١٨٢.

(٢) الدّكتور كامل الشّيبي: الصّلة ١/٣٠٧- ٣٠٨.

انقلبت إلى الزّهد والتّصوف، كما خرجت مدرسة المعتزلة الّتي لونت الفكر الإسلامي العقلي بكثير من ألوانه، وأخرجت الكوفة الفقه، كما أخرجت التّشيع بمذاهبه المتعددة، ولسنا هنا في مجال المقارنة العامة بين الاثنين، وإنما نحن نريد أن نعرض فقط لنشأة الحياة الرّوحية في الكوفة وأن نقارن بين هذه النّشأة ونشأة نفس هذه الحياة في البصرة لنرى هل من الممكن استخلاص نظرية عامة عن الحياة الرّوحية الأولى في الإسلام؟

إنّ تعدد العوامل الحضارية الإقليمية بين مختلف المدن يجعل من المتعذر وضع هذه النّظرية، إنّ هناك عوامل عامة قد تقرب بين مختلف المدارس في مختلف المدن: أولاها: أنّ المجتمع الإسلامي لم يكن مجتمعاً مغلقاً، كانت البصرة مفتوحة لمنافذ الكوفة ومسالكها، كما كانت الكوفة للبصرة، وكان المفكرون المسلمون سواء أكانوا فقهاء أم عباداً ينتقلون بين هذه وتلك، ثانيتها: أنّ المجتمع الإسلامي شعر بنفس الغصة تجاه الحوادث القاسية -اجتماعية كانت أم سياسية- الّتي هزت ضمائره، الثّالثة: أنّ المؤثرات الأجنبية الّتي كانت تحيط بالبصرة، كانت هي هي نفسها الّتي تحيط بالكوفة، ثمّ بالشّام.

حقّاً: إنّ اختلاف المزاج العقلي قد ينتج اختلافاً محليّاً، ولكن ليس إلى الحد الّذي تختلف فيه النّظرية العامة، كان بناء الحضارة الإسلامية بناء واحداً متكاملاً، شارك فيه المجتمع الإسلامي كلّ من ناحيته بلبنة، والمؤثرات الأجنبية الّتي أطلت على البصرة، أطلت هي هي نفسها على الكوفة، ووقفت منها البصرة موقف المعاداة، كما وقفت الكوفة، حاربت البصرة بالعقل، وحاربت الكوفة بالفقه، وفي موقف العبادة أو موقف الرّوح، بكى البصريون، كما بكى الكوفيون، وتغنت البصرة بالحب، وأتى سفيان الثّوري، فاستمع إليه، ولم يبك، بل أنس وطرب، وشارك كلّ منهما في وضع أسس الرّوح، وتكامل العمل، حيث تلقته بغداد فيما بعد.

وسنعرض الآن لنشأة هذه الحياة الرّوحية الأولى في الكوفة:

١- أثر عبد الله بن مسعود في الحياة الرّوحية للكوفة:

ولعل نشأة هذه الحياة إنما يعود إلى حياتها الأولى حين أرسل عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود، القارئ الأوّل لرسول الله(ﷺ) ليلي قضاءها وبيت مالها، وليعلم أهلها القرآن، كما أرسل أبا موسى الأشعري إلى البصرة، وقد تكلمت من قبل عن عبد الله بن مسعود، والجانب الرّوحي الخالص فيه، وأود أن أوجه الأنظار إلى أنّ تلميذي الدّكتور عبده الرّاجحي، يقوم ببحث شامل عن الجوانب المتعددة لحياة عبد الله بن مسعود وأفكاره وآرائه وقراءته وعبادته، ونرجو أن يظهر هذا البحث قريباً.

ولقد كان لعبد الله بن مسعود في نشأة الحياة الرّوحية وتطورها في الكوفة المكان الأوّل، كان لا بد لقارئ القرآن الأوّل، أن ينشئ حلقة قرآنية، فتكونت طائفة القراء في الكوفة، كما تكونت طائفة القراء في البصرة، وستنشأ العبادة والزّهد في هذه الطّائفة، كما نشأت في نفس هذه الطّائفة في البصرة، وسيخرج من هذه الطّائفة، فريق الزّهاد من الخوارج، وسينشئون مدرسة زاهدة من أكبر مدارس الزّهد في الإسلام، ولكن الأثر البالغ لعبد الله بن مسعود في الكوفة هو ما نبحثه نحن، وحين أرسله عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة، هو وعمار بن ياسر، كتب في خطابه إليهم: «قد بعثت إليكم عماراً أميراً، وابن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النّجباء من أصحاب محمّد(ﷺ) من أهل بدر، فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي»[١]، وقام عبد الله بن مسعود -كما قلت- بدور المعلم الرّوحي الكبير في الكوفة، وكان يجمع حوله التّلاميذ يقرؤون عليه القرآن ويقص لنا تلميذه الكبير علقمة قصة قراءته القرآن هو ومجموعة من التّابعين عليه[٢]، واختلف عبد الله بن مسعود مع عثمان، وأمره عثمان بأن يترك مهجره -الكوفة- وأن يعود إلى المدينة، وطلب منه أهل الكوفة أن يبقى وقالوا له: أقم فلا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه، فقال: إنّ له عليّ طاعة، وإنّها ستكون أمور وفتن، لا أحب أن أكون أوّل من فتحها[٣]، ثمّ ذهب إلى المدينة، ومات بها وحين أتى علي إلى الكوفة، أتاه نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود وسألهم عنه فمدحوه أشد المدح، فأجاب علي: «وأنا أقول فيه مثل الّذي قالوا وأفضل، قرأ القرآن وأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه في الدّين عالم في السّنة»[٤]، وهذا يدل على ما تركه الرّجل من أثر كبير في الكوفة، فلقد أنشأ طائفة القراء، وقد أجمعت المصادر أيضاً على أنّه من كبار المتهجدين من أصحاب محمّد، كما كان من الخائفين والبكائين، وبهذا قد زرع البكاء في أعماق الكوفة، وسيتطور البكاء بعده، وسيتصل بمصدر آخر، هو البكاء الشّيعي، على عترة آل البيت، وسينتشر تلامذة عبد الله بن مسعود في أعماق الكوفة، بل نجد أثره في عابد من كبار العابدين فيها -وهو معضد بن يزيد العجلي- وسينهاه عبد الله بن مسعود عن التّعبد في الجبانات، ويعتبر هذا النّوع من التّعبد بدعة.

وفي إيجاز كان لعبد الله بن مسعود الأثر الكبير في نشأة الحياة الرّوحية في الكوفة، ومن العجب أن نرى باحثاً ممتازاً كالدّكتور كامل الشّيبي لا يذكره في بحثه عن الزّهد في الكوفة.

(١) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء ٣٤٧/١.
(٢) نفس المصدر ٣٣٨/١.
(٣) نفس المصدر ٣٥٠/١.
(٤) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء ٣٥٢/١.

٢- أثر سلمان الفارسي في تطوير الزّهد والتّصوف في الكوفة:

ثمّ نرى شخصية صحابية أخرى، كان لها أيضاً أثر كبير في حياة الرّوح في الكوفة وهي شخصية سلمان الفارسي، ونحن نعلم أنّه كان لسلمان صورتان: صورة حقيقية، وصورة أسطورية[١].

أمّا الصّورة الأولى: فهي صورة السّائح الفارسي، ينتقل من مكان إلى مكان باحثاً عن الحقيقة، متنقلاً بين الأديان، فمن مانويته أو مزدكيته الأولى إلى المسيحية، ثمّ من المسيحية، وبعد رحلات متعددة، يقف هذا النّاسك الفارسي على مشارف المدينة، مميزاً في محمّد رسول الله(ﷺ) آيات النّبوة وعلاماتها، وكان عدد من الرّهبان النّساك الّذين قابلهم في رحلاته قد كشفوا له عن هذه العلامات وأخبروه أنّها في كتبهم القديمة، وأنّ عهد هذه النّبوة قد أطل، ولقد ظن سلمان أنّ في المدينة نهاية حجه الرّوحي، وحقاً ما لبث الرّجل أن دشن بكلمات من الرّسول: «سلمان من أهل البيت»، ولهذا دخل في الإطار الرّوحي للأسرة النّبوية، ثمّ قبض الرّسول، وبدأت غزوات المسلمين، وكان من الواضح أن يسير سلمان مع الجيش الإسلامي الزّاحف إلى فارس.

ولا شك أنّ الرّجل كان يشعر أنّه ماضٍ في سياحاته لهداية بني أمته، وأن يقودها إلى طريق الحقيقة الّذي نشده والّذي وجده في الإسلام، وكان سلمان وحذيفة بن اليمان ممن تخيرا موضع الكوفة، وفي الكوفة نزل أحلافه من بني عبد القيس، كما اختط للحمراء من الفرس معسكراً في جوار بني عبد القيس، ويرى المؤرخون أنّ هذا كان من عمل سلمان، على أية حال ترك سلمان تعاليمه الزّاهدة، كما ترك آثار محبته في وجوه بني عبد القيس -من بين صوحان- زيد وشيخان وصعصعة، ثمّ استقر سلمان في المدائن أميراً لها، وأصبحت المدائن قبلة للمسلمين يأتون سلمان «ابن الإسلام»، «صاحب الرّسول»، و«سابق الفرس»، بل أحد آل البيت يلتمسون حكمته، ويرون مثال زهده.

وقد صور هذا العلم وهذه الحكمة علي بن أبي طالب حين ذكر عنه بعد ذلك: «من لكم بمثل لقمان الحكيم، ذاك امرؤ منا وإلينا، أهل البيت، أدرك العلم الأوّل والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأوّل والكتاب الآخر، بحر لا ينزف»[٢]، بل إنّ سلمان نفسه يتكلم عن علمه الخاص، ويقول: لو حدثتهم بكلّ ما أعلم لقالوا رحم الله قاتل سلمان[٣]، ثمّ نراه يكتب إلى أبي الدّرداء حين طلب منه هذا الأخير أن يأتي إليه في بيت المقدس: «هلم إلى الأرض المقدسة»، فكتب سلمان إليه يقول: «إنّ الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدس المرء عمله»[٤].

ويقول سلمان: إنه تعلم هذا من «علجة» -أي مولاة فارسية- في المدائن، فقد كان يلتمس مكاناً طاهراً يصلي فيه، فقالت له هذه الفارسية: التمس قلباً طاهراً، وصل حيث شئت[٥]، أمّا معيشته فقد كانت معيشة الزّهاد العُباد، وكان يسير في المدائن فتسجد له العجم، فينكس رأسه ويقول: خشعت لله، خشعت لله[٦]، وكان يردد: أوصاني خليلي أن لا يكون متاعي من الدّنيا إلا كزاد الرّاكب[٧]، وكان يردد: ثلاث أعجبتني حتّى أضحكتني: مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري، أساخط رب العباد والعالمين عنه أم راض عنه، وثلاث أحزنني حتّى أبكينني: فراق محمّد وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي ربي عزّ وجلّ ولا أدري إلى جنة أو إلى نار.

وقد رأينا هذه النّعمة لدى عُباد البصرة، كما سنراها لدى عُباد الكوفة، أثر سلمان في أعماق مدرسة الحسن البصري، وروى عنه الحسن كما قلنا، كما روى عنه ثابت البناني، وعامر بن عبد الله، كما روى عنه عُباد الشّيعة وزهادهم في الكوفة.

وبعد، فقد ترك سلمان آثاراً كبيرة في عُباد المسلمين، سواء أكانوا من السّنة أم من الشّيعة، وذلك حين انقسم المسلمون إلى هذين الفريقين من بعده وقد زرع في البصرة، كما زرع في الكوفة آثار زهده، وكان من أكبر التّلاميذ من العُباد زيد بن صوحان، وقد ذكرنا من قبل أنّ زيداً أوّل من بنى دويرة للعُباد في البصرة، وقد روى الحسن البصري عدداً من الأحاديث مسندة إلى سلمان[٨]، أمّا في الكوفة فقد كان أثره في تلميذه الكبير صعصعة بن صوحان، كما التف حوله مجموعة من التّابعين من كندة وبعد القيس، وبني عجل.

أمّا الصّورة الأخرى صورة «سلمان» الأسطورة: فقد تتبعها ماسينيون في مقالته: «سلمان الفارسي والبواكير الأولى للحياة الرّوحية في إيران»، دخل سلمان الأسطورة في عقائد الشّيعة الغلاة، ويمثل هؤلاء الغلاة من الشّيعة نوعاً من التّصوف الفلسفي لا يمثل التّصوف الإسلامي الحقيقي سواء عند أهل السّنة أو الشّيعة المقتصدين، ففسر وصف علي بن

(١) أبو نعيم: الحلية ١٨٥/٢، والذّهبي: سير أعلام النّبلاء ٣٦٣/١.
(٢) أبو نعيم: الحلية: ١٨٧/١، والذّهبي: سير أعلام النّبلاء ص٣٩٤.
(٣) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء ٣٩٥/١.
(٤) نفس المصدر ٣٩٩/١.
(٥) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء ٤٠١/١.
(٦) نفس المصدر ٣٩٦/١.
(٧) أبو نعيم الحلية ١٨٦/١.
(٨) أبو نعيم: الحلية ١٩٦/١.

أبي طالب لعلم سلمان تفسيراً غنوصيّاً، لم يعرفه علي ولم يقصده سلمان، ومن الأمثلة على هذا: العلم الأوّل والعلم الآخر، فسرت على أنّها «الماضي -المستقبل أو تنزيل- تأويل أو علم محمّد وعلي»، «وبحر لا ينفد»، تشرح بما يوحي بأنّ سلمان يهيمن على سبعة نقباء، أو سلسل يمنح الحكمة ويؤتي البرهان[١].

بل إنّ ماسينيون يذهب إلى أنّ صعصعة بن صوحان وهو أحد الشّيعة الأوائل ومن كبار عُبادهم وتلميذ أمين لسلمان، قال منذ سنة «٣٣هـ» أمام معاوية بالنّظرية الشّيعية الّتي تجعل من إمامة آدم وإمامة علي «العين، الصّامت» شيئاً واحداً، فكان حينئذ أحد الأفراد الّذين قدروا مقام علي الحقيقي في ذلك الحين، وتلك أيضاً تدخل في باب أسطورة سلمان، وقد كان صعصعة بن صوحان من عُبّاد المسلمين الكبار، ومن أتباع علي المخلصين، ولم يذهب أبداً إلى هذه الصّورة الغنوصية الّتي يستخرجها خيال ماسينيون من النّصوص، ولكن من المهم أن نذكر أنّ قصة سلمان الأسطورية كانت ذات أثر عميق في نشأة الحياة الرّوحية لدى عُباد المسلمين المعتدلين سواء أكانوا سنة أم شيعة، ثمّ استخدمت ببراعة نادرة لدى الغنوصيين القاتمين من غلاة الشّيعة، وأضفى على سلمان فكرة السّين، النّموذج الأوّل للأسباب، الرّوابط الخارقة الّتي يمكن أن تربط بين السّماء والأرض، سبب الشّد والتّلقين، الباب الّذي يدخل منه النّور الشّعشعاني والقدرة الّتي تمنح الوجود، أضاف الغلاة من الخطابية والإسماعيلية والنّصيرية والدّروز وغيرهم كلّ هذه الصّفات وهذه الأسماء إلى سلمان، ومن غلاة الشّيعة دخلت في أعماق التّصوف الفلسفي، والتّصوف الإشراقي، ولكنها لا تصور أبداً حقيقة سلمان، ولا حقيقة أتباعه الحقيقيين من السّنة والشّيعة المقتصدة، وقد اعتبره الأولون صاحب رسول الله، وأحد أهل البيت ممن أحبوا عليّاً أشد الحب، ولكنه عمل لعمر أميراً، وأضفى بحياته وزهده وعلمه على حياة الرّوح الأولى نغمات رائعة، واعتبره الآخرون أحد أركان الشّيعة الكبار الّذين أرسوا حقيقة علي في الإمامة، ثمّ كان له علم الأولين والآخرين، العلم الحقيقي بالأديان السّابقة، ثمّ العلم الشّامل بالإسلام، ولم يشك علماء أهل السّنة أنفسهم في أنّه كان لسلمان مكان كبير في العلم.

ولكن أهل السّنة فهموا من علمه معنى الفقه، أمّا الشّيعة الإمامية، ثمّ الاثنا عشرية من بعدها فإنّها أولت النّصوص عن سلمان تأويلاً خاصاً، وبخاصة في موقفه من المباهلة، ولكنها لم تذهب أبداً إلى المدى الّذي ذهب إليه الإسماعيلية، أو كما صوره الشّلمغاني في كتاب المباهلة، صورة أسطورية تمثل سلمان في قمة البهاء ماسنيون الإلهي، عالياً على أصحاب الكساء، وعلى وفد نجران، ويستنتج من هذا نتائج خاطئة..: إنّ سلمان يمثل بهاء المسيح أو صورة متجددة له في قلب مدينة الرّسول[٢].

كان هذا المستشرق الكبير يحمل النّصوص ما لا تحتمل، ويصورها كما يريد، ويبترها لتحقيق النّزعة الرّوحية الكاثوليكية الّتي سيطرت عليه، فأضاع لنا الصّورة الحقيقية لأثر سلمان في تطور الحياة الرّوحية الإسلامية، وذلك بالرّغم من النّصوص الممتازة الّتي قدمها لنا، كان لسلمان بلا شك صورتان: صورة تاريخية حقيقية دخل بها في سلاسل الصّوفية الممثلين للإسلام من سنة وشيعة إمامية، «كما كانت له صورة غنوصية لدى غلاة الشّيعة -كما قلت- وقد دخلت هذه الصّورة في سلاسل صوفية الحلول ووحدة الوجود، ونحن نعلم أنّ هذا التّصوف الفلسفي إنما كان في دوائر قليلة، ولكن لم تكن صورة سلمان في سلاسل هؤلاء الصّوفية الآخرين ذات صبغة مسيحية، بقدر ما كانت ذات صبغة غنوصية، إنّ ما أود أن أنتهي إليه من هذا العرض الموجز لحياة سلمان وأفكاره أنّه كان لحياة هذا الفارسي السّائح، الباحث عن الحقيقة آثار صارخة في الكوفة والمدائن، وأنّه ألقى في حياة الكوفيين والمدائنيين بقيم في العبادة، كما أنّه وضع للفرس الّذين عاشوا حوله في المدائن والكوفة مُثلاً عليا، آمن بها عباد السّنة على طريقتهم، كما آمن بها عباد الشّيعة أيضاً على طريقتهم»[٣].

٣- أثر حذيفة بن اليمان في الكوفة:

أمّا الشّخصية المهمة الثّالثة من الصّحابة في حياة الكوفة الرّوحية، فهي شخصية حذيفة بن اليمان، وقد سبق أن أشرت إلى حذيفة كواحد من رواد الرّوح من الصّحابة، وذكرت أنّ العلامة العراقي الممتاز الدّكتور كامل الشّيبي قد قدم لنا في كتابه «الصّلة بين التّصوف والتّشيع» عرضاً رائعاً عن حذيفة بن اليمان، كركن من أركان الشّيعة وأثره -كشيعي- في التّصوف[٤][٥]، ولكنني أحاول هنا أن ألقي نظرة موضوعية عن حذيفة بن اليمان وعن أثره في عُباد البصرة وعُباد الكوفة معاً.

عرف حذيفة بأنّه من نجباء أصحاب محمّد(ﷺ)، بل يصفه الذّهبي وهو المحدث العتيد بأنّه «هو صاحب

(١) الدّكتور بدوي: شخصيات قلقة في الإسلام ص١٨.

(٢) الدّكتور بدوي: شخصيات ص١٧٧.

(٣) انظر: تعليق الأستاذ الدّكتور عبد الحميد مدكور، على مثل هذه المواضع ٢١١/١ «النّاشر».

(٤) الدّكتور كامل الشّيبي، الصّلة ٤٢/١، ٤٣.

(٥) انظر: تعليق الأستاذ الدّكتور عبد الحميد مدكور، على مثل هذه المواضع ٢١١/١ «النّاشر».

السّر»[1]، وقد أجمع مؤرخو الصّحابة على أنّ رسول الله(ﷺ) قد ألقى إليه بأسرار الكائنات إلى يوم القيامة[2]، وسيثير هذا - وكما رأى الدّكتور الشّيبي بحق- فكرة العلم الباطن، والعلوم السّرية، وأنّ هذه العلوم قد أودعها الرّسول بعض صحابته وبالذّات الصّحابة من عترته النّبوية، و«علي» على رأسهم، ثمّ نسب إلى حذيفة علم معرفة القلوب، وهو يقول نفسه: «كان النّاس يسألون رسول الله(ﷺ) عن الخير، وكنت أسأله عن الشّر مخافة أن يدركني»، وقد قصد بالشّر هنا معنيين:

المعنى الأوّل نفاق القلوب وتغيرها: ولذلك قيل: إنّ الرّسول قد أسر إليه بمعاني النّفاق، وتقلبات القلوب فيه وأسماء المنافقين.

والمعنى الثّاني: الفتنة: وأنّها ستقبل على المسلمين امتحاناً لهم، وستتغير قلوب المسلمين، وستنكت النّفاق في قلوبهم، وقد فتح هذا للصوفية من بعده فكرة «رقيق الرّياء» وكيف يتخلصون من نفاق القلوب ورياؤها، وكيف يجاهدون تحولاتها ومداهناتها، وكان حذيفة يحدث في المدائن والكوفة عن الفتنة وإقبالها، فيقول: إنّ للفتنة وقفات وبغتات، فمن استطاع أن يموت في وقفاتها، فليفعل، ويكرر ثانية: إنّ الفتنة تعرض على القلوب، فأي قلب أشربها، نكتت فيه نكتة سوداء، فإن أنكرها، نكتت فيه نكتة بيضاء، فمن أحب منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر، فإن كان يرى حراماً ما كان يراه حلالاً، أو يرى حلالاً ما كان يراه حراماً، فقد أصابته الفتنة، فلما قتل عثمان، وأقبل عليه النّاس يقولون له: إنّ الفتنة وقعت، فحدثنا ما سمعته، فأجاب: أولم يأتكم اليقين، كتاب الله عزّ وجل.

ومات حذيفة قبل أن تستعر أوار الفتنة، وهو يردد: «حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم، أليس بعدي ما أعلم، الحمد لله الّذي سبق بي الفتنة، قادتها وعلوجها»، وقد أجمعت المصادر أيضاً على أنّ حذيفة عاش في المدائن وفي الكوفة عيشة الفقراء الزّاهدين، بل دخل المدائن أميراً عليها، وهو راكب على حمار وهو سادل رجليه من جانب، وفي يده رغيف وفي الأخرى عرق، وخرج إليه أمراء البلدة من العجم والعرب، فرأوه يدخل المدينة، وهو على ذلك الحال حال ركوب الأنبياء، كما تقول المصادر[3].

تلك هي صورة موجزة لحياة حذيفة وتميزه عن غيره من صحابة النّبي(ﷺ)، فما هي آثاره في مجرى الحياة الرّوحية في الإسلام بعده، وبخاصة في البصرة وفي الكوفة وفي المدائن؟

أمّا في البصرة فقد ترك فيها ثلاثة من الآثار المهمة:

الأثر الأوّل: وهو عظاته المتعددة في اتقاء الفتنة، وتحديثه عنها، وأنّها كائنة، وأنّ على القراء اتقاءها، وقد فعل هذا عُباد البصرة وقراؤها، وقد وصلت إليهم بلا شك أحاديثه المتعددة، والّتي جمعها لنا أبو نعيم وابن الجوزي والذّهبي، والّتي تدعو المسلمين إلى تجنب الفتنة قادتها وعلوجها، خيرها وشرها.

أمّا الأثر الثّاني: فهو العلم الباطني، أو العلم اللدني على وجه الإجمال، وقد وضع الصّوفية فيما بعد: سلسلة من سلاسل التّصوف، يظهر فيها حذيفة بن اليمان بين الرّسول(ﷺ) والحسن البصري، وليس ثمة صلة تاريخية بين حذيفة والحسن، ولكن بالرّغم من هذا نسب الصّوفية إلى عبد الواحد بن زيد: أنّه سأل الحسن البصري عن علم الباطن، فقال: «هو سر من سري، أجعله في قلب عبدي، لا يقف عليه أحد من خلقي»[4]، والحديث منحول.

ولم يأخذ الحسن البصري عن حذيفة ولم يعاصره، ولكن فيه دلالة على أنّ أخبار حذيفة كانت متواترة بين عُباد البصرة.

أمّا الأثر الثّالث: فهو البكاء، وقد عرف عن حذيفة البكاء.

وقد ذكر الأعمش أنّ حذيفة كان يبكي في صلاته وكان يطلب من جالسيه أن لا يعلموا بهذا أحداً[5]، وانتشر البكاء في البصرة، كما انتشر في الكوفة.

أمّا في الكوفة: فقد أثر حذيفة فيها أكبر الآثار، حذيفة الحقيقي وحذيفة الأسطورة، إنّ الكوفة فعلاً لم تستمع إليه، وهو يطلب إليها اتقاء الفتنة، وهو يعلم أنّه لا مناص منها، ولكن فكرة العلم الباطني الّذي حمله أو حمّله إياه النّاس، فقد أثر في عُباد الكوفة من أهل السّنة، كما أثرت أيضاً فكرة «رقيق الرّياء» فيهم، وسيرددها سفيان الثّوري، وإن كان سينسبها أيضاً إلى شخصية غامضة هي شخصية أبي هاشم الكوفي.

أمّا إذا انتقلنا إلى حذيفة الأسطورة، فسنرى أثره الكبير أيضاً في عُباد الكوفة من الشّيعة، فوصلوا بين علمه السّري، وعلم علي، وأنّ علمه الخاص هذا جزء من العلم الّذي قال علي بن أبي طالب فيه: «علمني رسول الله(ﷺ) سبعين باباً من العلم، لم يعلم ذلك أحداً غيري»[6]، فحذيفة إذن موصول بعلي، علاوة على مؤاخاة الرّسول له بعمار، ركن الشّيعة الكبير، وقد

(١) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء ٢٦٢/٢.
(٢) نفس المصدر ٢٦٣/٢.
(٣) أبو نعيم: الحلية ٢٧٤/١، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٢٥١/١، والذّهبي: سير أعلام النّبلاء ٢٦٣/٢، ٢٦٤.
(٤) الكلاباذي: التّعرف ص٥٩.
(٥) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٢٥١/١.
(٦) الدّكتور كامل الشّيبي، الصّلة ٤٣/١، وانظر أيضاً: السّراج، اللمع ص١٩.

تطور عن هذا العلم السّري المنسوب لحذيفة نظرية المعرفة عند الصّوفية.

يقول الدّكتور كامل الشّيبي: «والواقع أنّ صلة حذيفة بالتّصوف وثيقة، لأنّه السّابقة الخطيرة في إمكان اطلاع غير الرّسل وغير أوصيائهم -كما عند الشّيعة- على أسرار لا يتاح الاطلاع عليها إلا لذوي الاستعداد الرّوحي الخاص، وقد أدخل المتصوفة هذه العلوم في طريقهم، وسرعان ما صنعوا حديثاً رفعوه إلى الله عزّ وجل وكان من سلسلة سنده حذيفة بن اليمان، صاحب السّر، فكان بذلك أوّل شيعي يأخذ منه الصّوفية نظرية المعرفة عندهم»[١]، ولا شك أنّ نظرية المعرفة عند الصّوفية قد نشأت عن عوامل أخرى متعددة، وأنّ علم حذيفة الخاص يختلف في طبيعته عن طبيعة هذه النّظرية عندهم، ولكن الصّوفية قد حاولوا أن ينسبوا نظرياتهم لمجموعة من الصّحابة، كان من أبرزهم حذيفة بن اليمان، ثمّ تظهر صورة حذيفة الأسطورة، صاحب السّر، في رشيد الهجري صاحب علي، فبينما كان حذيفة بن اليمان صاحب سر النّبي، وكان حذيفة يعرف النّفاق وأهله، كان رشيد الهجري صاحب سر علي يعرف الشّهداء، ومتى وكيف يموتون، فهذا صاحب علم القلوب ونفاقها، وذلك صاحب علم البلايا والمنايا وأصحابها[٢].

٤- علي بن أبي طالب، والزّهد والتّصوف في الكوفة:

ويأتي علي بن أبي طالب إلى الكوفة، وباني الأمة، وصاحب الأسرار جميعها في نظر الصّوفية، ورأس سلاسلتهم، وصاحب الوصية والعلوم المكنوزة، ويؤثر في صوفية الكوفة، السّنيين منهم والشّيعة.

كما يؤثر في عُباد البصرة، بل في عُباد العالم الإسلامي جميعاً، ثمّ ينتقل أثره الكبير إلى الزّهاد، كما ينتقل أثره إلى الصّوفية، وقد سبق أن عرضنا لنماذج من حياته وفكره فلا داعي لتكرارها هنا، وإنما نقول فقط: إنّ أثره الأكبر كان في الكوفة حيث عاش الفترة الأخيرة من حياته، أو بمعنى أدق: إنّ أثره الكبير في الحياة الرّوحية في الإسلام من بعده، إنما شع من الكوفة، وانتقل إلى بقية أرجاء العالم الإسلامي، ونعود إلى الكوفة، فنقول: إنّ حياة علي فيها وموته أدى إلى نوعين أو نسقين من الحياة الرّوحية: نسق سني، ونسق شيعي -مقتصد وليس بين النّسقين كبير خلاف- ونسق شيعي غالٍ.

(١) الدّكتور كامل الشّيبي، الصّلة ٤٥/١.
(٢) الدّكتور كامل الشّيبي، الصّلة ٦٤/١، ٦٥.

الفصل الثّاني

مدرسة الكوفة السّنية

جاء عبد الله بن مسعود -كما قلت- إلى الكوفة، وزرع بها زرعاً كبيراً ما لبث أن أثمر غرسه ونبته، أنشأ ابن مسعود طائفة القراء، وهي تقابل تماماً الحلقة القرآنية الأولى الّتي أنشأها أبو موسى الأشعري في البصرة، وسنرى فيها خصائص مدرسة البصرة مع اختلافات يسيرة شغلت البصرة بالتّعبد القرآني، ولم تشغل برواية الحديث، واشتهرت بالبكائين، بينما ساد الكوفة أيضاً نفس التّعبد مع عناية بالحديث، ولعل عناية حلقات الكوفة بالحديث كان لخدمة الفقه الّذي اشتهرت به الكوفة، غير أنّ ظاهرة البكاء تتضح بالكوفة أيضاً، كما اتضحت بالبصرة، غير أنّ بكاء البصرة، كان كما قلت صارخاً، بكاء عجوز شمطاء تبكي خريف الحياة، أمّا هنا في الكوفة، فكانت العروس المجلوة تبكي بكاء الحسرة والنّدم على شباب الحياة، على شبابها الّذي لم يعمر طويلاً، على ظلم القدر لها، ثمّ سيتطور إلى بكاء عميق على أبناء فاطمة الّذين سقطوا بجوارها، ولقد لفظوا أنفسهم في سبيل القرآن الّذي يقرؤونه ويتدبرونه.

كان بكاء الكوفة هادئاً، مكظوماً في خفية عن أعين الحكام، لأنّه تمثل في أشخاص ربانيين، بينما كان بكاء البصرة مسموعاً عالياً منطلقاً، لا يتمثل في أشخاص ولا يتحدد في ذوات معينة.

وسنحاول أن نعرض لنماذج من هؤلاء العُباد الأوائل في الكوفة من مدرسة عبد الله بن مسعود، وقد ذكرنا من قبل هذا الأثر الّذي يقرر أنّ الزّهد انتهى إلى ثمانية من التّابعين: البعض منهم من أهل البصرة، وقد عرضنا لهم من قبل، والبعض منهم من أهل الكوفة، والقلائل منهم، بل هو واحد فقط من أهل الشّام[٣].

١- مسروق بن عبد الرّحمن الهمداني الكوفي: راهب الكوفة:

إنّ أوّل صورة لعُباد الكوفة من تلامذة عبد الله بن مسعود، هي صورة مسروق بن عبد الرّحمن الهمداني الكوفي المتوفى عام ٦٣هـ وقد اعتبر مسروق أحد الزّهاد الثّمانية الأوائل من التّابعين، وكان الكوفيون لا يقدمون أحداً عليه من أصحاب عبد الله بن مسعود[٤].

وكان مسروق يمثل العبادة التّقليدية المأثورة عن الصّحابة، فعاش عيشة زاهدة، ويدعو النّاس إلى الإخبات في

(٣) أبو نعيم: الحلية ٨٧/٢.
(٤) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ١٣/٣.

الصّلاة، وأنّ السّجود هو طريق القرب إلى الله، ولذلك شبهوه بالرّهبان: «كان يقوم للصلاة كأنّه راهب»، وكان يرخي السّتر بينه وبين أهله، «ويقبل على صلاته ويخليهم ودنياهم»، ويدعو إلى التّعمق في القرآن وأنّ منه يستنبط «علم الأولين والآخرين، علم الدّنيا والآخرة»، وكره هؤلاء الّذين يظهرون العجب بأعمالهم دون خشية من الله، «كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله»، وكان مسروق من أوائل من تنبهوا إلى فكرة «النّفس اللوامة» وسيبحثها صوفية أهل السّنة من بعده وتمنى أن يغلق بابه دون النّاس، فكان يردد:

ويكفيك مما أغلق الباب دونه
وأرخى عليه السّتر ملح وجردق

ثمّ يأخذ بيد ابن أخ له، ويرتقي به إلى كناسة الكوفة، ويقول له: «ألا أريك الدّنيا، هذه الدّنيا أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، وركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستعملوا فيها محارمهم وقطعوا منها أرحامهم..» همس يهمس به إلى ابن أخيه، بعيداً عن النّاس، وهو الّذي أرغم على تولي القضاء، وأخيراً يقول لسعيد بن جبير: «يا سعيد، ما بقي شيء يرغب فيه، إلا أن نعفر وجوهنا في التّراب، ولما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: ما لي لا أجزع، وإنما هي ساعة، ولا أدري إلى الجنة أم إلى النّار»[1].

٢- الأسود بن يزيد: أو تعذيب الجسد:

ثمّ نجد صورة ثانية من تلامذة عبد الله بن مسعود، وهو الأسود بن يزيد بن قيس بن عبد الله المتوفى عام ٧٥هـ وهو أيضاً من الثّمانية الّذين انتهى إليهم الزّهد، وقد دعي أيضاً براهب من الرّهبان، ولعل هذا لأنّه اعتنق فكرة «تعذيب الجسد» بل يذكر عنه أنّه كان «يجهد نفسه في الصّوم والعبادة، حتّى يخضر جسده ويصفر»، وكان ابن أخيه وهو أحد كبار العُباد أيضاً في البصرة علقمة بن قيس يؤنبه على هذا ويقول له: «ويحك، لم تعذب هذا الجسد؟» فيرد الأسود قائلاً: «راحة هذا الجسد أريد» أي أنّه يعذبه هنا، لكي يستعذب الرّاحة الأبدية في الآخرة، وكان يردد أحياناً: «إنّ الأمر جد، إن الأمر جد»، ولذلك فرض على نفسه صيام الأبد، وذهبت إحدى عينيه من الصّوم[2].

وبعد: فهل هناك صلة بين عبادة الأسود وبين رهبان المسيحية، وبخاصة أنّه يتخذ طريقهم في تعذيب النّفس، لا نجد أبداً أنّ هناك أدنى صلة، ولا تقودنا النّصوص الّتي بين أيدينا إلى اقتناص أثر مسيحي في عبادته.

(١) أبو نعيم: الحلية ٩٥/٢- ٦٨، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ١١/٣- ١٣.
(٢) أبو نعيم: الحلية ١٠٢/٢- ١٠٥، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ١١/٣.

٣- علقمة بن قيس: زين القرآن:

وقد اتصلت حياة الأسود بحياة ابن أخيه علقمة بن قيس النّخعي «المتوفى عام ٧٢هـ»، وقد كان علقمة أحب تلامذة عبد الله بن مسعود إليه، وقد شبهوه بالرّسول(ﷺ) من ناحية، وبعبد الله بن مسعود من ناحية، بل اعتبر من الدّيانيين الّذين يقرؤون القرآن، كما اعتبر رباني هذه الأمة، وهي جملة أطلقت على علي بن أبي طالب نفسه، كما أطلق عليه «زين القرآن»، ويذكر المؤرخون أنّ عبد الله بن مسعود مر على حلقة فيها علقمة والأسود ومسروق وأصحابهم، فوقف عليهم وقال: بأبي وأمّي، العلماء، بروح الله ائتلفتم، وكتاب الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله انتظرتم، أحبكم الله وأحب من أحبّكم، وقال فيه عبد الله بن مسعود أيضاً: ما أقرأ شيئاً، ولا أعلم شيئاً، إلا علقمة يقرؤه أو يعمله، وكان علقمة ينأى عن النّاس حتّى عاتبه النّاس على هذا: لو جلست فأقرأت القرآن وحدثتهم، فأجاب: أكره أن يوطأ عقبي، وأن يقال: هذا علقمة، ويذهب لرعي غنمه، وكان يترك النّاس يشتمونه فلا يجيب، وعلا على نزوات الحياة، بحيث يقول لامرأته في مرضه الأخير: تزيني واقعدي عند رأسي لعل الله أن يرزقك بعض عوادي[3]، وقد سئل الشّعبي المحدث المشهور عن علقمة أفضل أم الأسود؟ فقال: علقمة، كان الأسود رجلاً حجاجاً، وكان علقمة بطيئاً وهو يدرك السّريع[4].

٤- الرّبيع بن الخيثم: قتل النّفس والصّدق والصّمت:

ثمّ نأتي إلى صورة رابعة من صور أصحاب عبد الله بن مسعود، وهو الرّبيع بن الخيثم، وقد اعتبر الرّبيع بن خيثم أحد الثّمانية الّذين انتهى إليهم الزّهد، وكان من خاصة عبد الله بن مسعود، بحيث كان ابن مسعود لا يأذن لأحد بالدّخول عليه، إذا أتاه الرّبيع، حتّى يفرغ كلّ من صاحبه.

وكان ابن مسعود يقول له: لو رآك رسول الله(ﷺ) لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين، وبهذا نرى هذا الاصطلاح القرآني يطلق على عُباد الكوفة، ومن المرجح أنّه كان يقابل مصطلح البكائين في البصرة[5]، وقد كان الرّبيع أيضاً من البكائين.

وقد ذكر عنه أنّه كان يبكي حتّى تبل لحيته دموعه، ويقول: أدركنا أقواماً كنا في جنبهم لصوصاً[6]، وكان يقضي الليالي متهجداً باكياً، فتناديه أمّه: يا بني، يا ربيع ألا تنام؟!

(٣) أبو نعيم: الحلية ٩٨/٢- ١٠٢، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ١٣/٣- ١٤.
(٤) أبو نعيم: الحلية ١٠٣/٢.
(٥) أبو نعيم: الحلية ١٠٦/٢، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٦/٢.
(٦) أبو نعيم: الحلية ١٠٨/٢- ١٠٩، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٦/٢.

فيجيبها: يا أمّه، من جن عليه الليل، وهو يخاف البيات حق له أن لا ينام.

ولما بلغ أشده، وزاد بكاؤه في الليالي، تسأله أمّه مرة ثانية: يا بني، لعلك قتلت قتيلاً، فقال: نعم يا والدة، قد قتلت قتيلاً، قالت: ومن هذا القتيل يا بني حتّى نتحمل على أهله فيعفون؟ والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسّهر بعد، لقد رحموك، فيقول يا والدة، هي نفسي[١]، لقد وضع الرّبيع إذن في تاريخ المخبتين، ثمّ الصّوفية من بعده فكرة قتل النّفس، وسينادي بها الحلاج فيما بعد في أسواق بغداد.

ووضع الرّبيع بن خيثم أيضاً أساس فكرة «الصّعق» في الكوفة، وقد رأيناها مراراً في البصرة من قبل، ولكن الغريب هنا أنّه حققها أمام عبد الله بن مسعود، ولم ينكر صاحب رسول الله عليه هذا.

إنّ المصادر تذكر أنّ عبد الله بن مسعود خرج هو ومجموعة من أصحابه إلى شاطئ الفرات، فمروا على حداد، فأخذ عبد الله بن مسعود ينظر حديدة في النّار ونظر الرّبيع إليها وتمايل ليسقط فمضى عبد الله وأصحابه سراعاً حتّى أتوا على أتون على شاطئ الفرات، فلما رأى عبد الله الأتون والنّار تشتعل في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿**إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً * وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً**﴾ [الفرقان: ١٢- ١٣] فصعق الرّبيع، فاحتمله أصحاب عبد الله بن مسعود إلى منزله، وبقي عبد الله بن مسعود بجانبه إلى المغرب حتّى أفاق، ثمّ رجع إلى أهله[٢].

ووضع الرّبيع أيضاً في مجرى الحياة الرّوحية في الكوفة، فكرة الصّمت وكانت الكوارث السّياسية تنزل بالكوفة، كان الرّبيع بن الخيثم يعلم أوضار الفتنة، وحين أتى علي بن أبي طالب الكوفة، أجابه جل النّاس إلى المسير، إلا أصحاب عبد الله بن مسعود، وعبيدة السّلماني، والرّبيع بن خيثم في نحو من أربعمائة رجل من القراء، فقالوا: يا أمير المؤمنين، قد شككنا في هذا القتال، مع معرفتنا فضلك، ولا غنى بك ولا بالمسلمين عمن يقاتل المشركين، فولنا بعض هذه الثّغور، لنقاتل عن أهله، فولاهم ثغر قزوين والرّي، وولى عليهم الرّبيع بن خيثم وعقد له لواء، وكان أوّل لواء عقد في الكوفة[٣].

فالرّجل إذن اعتزل الفتنة مع محبته لعلي ومعرفته لفضله، وحين عاد الرّجل إلى الكوفة ورأى ولاة بني أمية يتولون أعناق المسلمين لجأ إلى الصّمت بحيث كان لا يصدر عنه سوى الكلمة أو الكلمتين، يقول سفيان الثّوري: صحبنا الرّبيع بن خيثم عشرين سنة، فما تكلم إلا بكلمة تصعد، اتخذ الرّبيع الصّمت عبادة بحيث إذا نقل إليه ناقل: «إنّ ابن فاطمة(عليها السلام) قتل» أطرق الرّجل واسترجع، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿**قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر: ٤٦]، ثمّ سئل عما يراه في الأمر، فقال: ما أقول؟ إلى الله إيابهم، وعلى الله حسابهم[٤]، فالرّجل إذن قد لجأ إلى الصّمت نقمة وكراهية في دنيا تولاها سفهاء بني أمية، وخرج إلى المقابر يتعبد فيها، وقد كان أستاذه عبد الله بن مسعود ينهى معضد بن يزيد العجلي عن التّعبد في الجبانات.

ولعل الرّبيع فعل هذا بعد وفاة عبد الله بن مسعود، ونزول الكوارث بالكوفة، فكان إذا جن الليل ووجد غفلة النّاس، خرج إلى المقابر، فيقول: يا أهل المقابر كنا وكنتم[٥]، وكان يأنس إلى الوحدة ويقول: أنا بعصافير المسجد آنس مني بأهلي، وحاول جهده أن يخفي عبادته، فكان عمله كلّه سراً، وكان الرّجل يأتيه وهو يقرأ، فيسكت ويغطي المصحف بثوبه وكان يحدث عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله: «سيأتي على النّاس زمان تحل فيه العزلة ولا يسلم لذي دين دينه، إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق، ومن جحر إلى جحر، كالطّير بفراخه والثّعلب بأشباله»[٦]، وذهب إلى الأهواز مع صديق له، فنظرت إليه امرأة، فتعرضت له ودعته إلى نفسها، فبكى الشّيخ، فقال له صاحبه: ما يبكيك؟ قال: إنّها لم تطمع في شيخين إلا رأت شيوخاً مثلنا[٧]، فكان يبكي إذن ذنوب النّاس، يبكي ذنوب الشّيوخ الّتي دعتهم إلى جسدها من قبل، فقبلوا، فطمعت في شيوخ آخرين.

ولم تكن المعاني الكبرى الّتي وضعها في مجرى التّصوف خلال حياته، كالإخبات، وأمانة النّفس والصّعق والصّمت، هي كلّ ما ترك هذا العابد الكبير في تاريخ الحياة الرّوحية الإسلامية، بل إنّه عبر عن كثير من معانيها في أحاديثه القليلة الّتي تركها لنا، فكان يردد أنّ خير النّاس من كان منطقه ذكراً وصمته تفكراً، ومسيره تدبراً[٨]، ويأخذ عليه الصّمت كلّ مأخذ، ويطلب منه النّاس أن يذكر النّاس، فيقول: ما أنا عن نفسي براض، فأتفرغ من ذمها إلى أن أذم النّاس، إنّ النّاس خافوا الله في ذنوب النّاس، وأمنوه على ذنوبهم[٩]، وهذا كلام خطير في التّصوف، ولعلنا نتذكر أنّ عُباد البصرة شغلوا بالوعظ وردهم

(١) أبو نعيم: الحلية ١١٤/٢- ١١٥، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٤/٢.
(٢) أبو نعيم: الحلية ١١٠/٢، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٥/٣- ٣٦.
(٣) أبو حنيفة الدّينوري: الأخبار الطّوال ص١٦٥.
(٤) أبو نعيم: الحلية ١١١/٣.
(٥) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٣/٣.
(٦) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٢/٣- ٣٥.
(٧) أبو نعيم: الحلية ١١٦/٢- ١١٨.
(٨) أبو نعيم: الحلية ١٠٦/٢.
(٩) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٢/٣، وأبو نعيم: الحلية ١٠٧/٢.

بعض العباد بل العابدات عن هذا، وكانت حيونة ورابعة تنكران على عبد الواحد بن زيد وصالح المزي وعظهما وتطلبان منهما أن يشغلا بنفسيهما.

وهذا ما فعله الرّبيع بن خيثم، ووضع الرّبيع بن خيثم نفسه في مرتبة الاستسلام المطلق لإرادة الله، فحين أصابه الفالج طلب منه أصحابه أن يتداوى، فيقول: لقد علمت أنّ الدّواء حق، ولكن ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرّس وقروناً بين ذلك كثيراً، كانت فيهم الأوجاع وكانت لهم الأطباء، فلا المداوي بقي ولا أرى المداوي، وأهلك النّاعت والمنعوت لا حاجة لي فيه[1]، ودعا الرّبيع للناس حتّى لمن سرق دابته[2]، حتّى للحجر فقد أصابه حجر في رأسه فشجه، فمسح الدّم عن وجهه، وقال: اللهم اغفر له، فإنّه لم يتعمدني، وكان يردد لأصحابه: تدرون ما الدّاء والدّواء والشّفاء؟ قالوا: لا، قال: الدّاء الذّنوب، والدّواء الاستغفار والشّفاء أن تتوب ثمّ لا تعود، بل شغلته التّوبة أشد شغل، وحاول أن ينفذ خلال أحاديثه عنها شغاف القلوب: اتق الله فيما علمت، وما استوثر عليك فكلّه إلى عالمه، لأنا عليكم في العمد أخوف مني عليكم في الخطأ، وما خيرتكم اليوم بخير، ولكنه خير من آخر شر منه، وما تتبعون الحق إتباعه، وما تفرون من النّاس حق فراره، ولا كلّ ما أنزل على محمّد(ﷺ) أدركتم، ولا كلّ ما تقرؤون تدرون ما هو.. ثمّ يقول: «السّرائر، السّرائر اللاتي تخفين من النّاسن وهن لله تعالى بواد، التمسوا دواءهن، وما دواؤهن إلا أن تتوب، ثمّ لا تعود»[3]، ويعود ثانية إلى طلب الصّمت، ويطلب من أصحابه أقلوا الكلام إلا بتسع: تسبيح وتكبير، وتهليل وتحميد، وسؤالك الخير، وتعوذك من الشّر، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، وقراءة القرآن[4]، وكان يقول: إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا تفكرت، فاذكر اطلاعه عليك، فإنّه يقول تعالى: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً**﴾ [الإسراء: ٣٦]، وكان يطلب منهم محبة الموت، هذا الّذي لم يذوقوا قبله مثله: «.. والغائب إذا طالت غيبته وجبت محبته، وانتظره أهله، وأوشك أن يقدم عليهم»، فإذا أصبح عليه الصّباح، قال: «أصبحنا مذنبين نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا»[5]، فلما احتضر، بكت ابنته، فقال: يا بنية، لم تبكين؟ قولي بشراي أتى الخير، ولم يكن الرّبيع يخشى الموت إذن، بل يتطلبه، وينتظر مجيئه، وهذا أيضاً خلاف ثان بينه وبين عُباد البصرة الّذين خشوا الموت أشد الخشية، خوفاً من عذاب الله، أمّا في الكوفة، وقد رأوا عذاب البشر، عذاب بني أمية لهم، فانتظروا الموت على عجل، مرحبين به، وكأن دموع البصرة قد انهمرت من الباطن، بينما دموع الكوفة، قد أهمرها الخارج، الحياة المضنية الّتي عاشوها، سوط العذاب الّذي لقوه في هذه الدّنيا، التّقية الّتي فرضوها على أنفسهم.

وكان الرّبيع عالماً بكلّ ما حوله، وما جلس مجلساً منذ تأزر، وكان يقول: «أخاف أن يظلم رجل فلا أنصره أو يعتدي رجل على رجل، فأكلف عليه الشّهادة ولا أغض البصر، أو يقع الجاهل فلا أحمل عليه»[6]، لقد كظم الرّجل غيظه، واحتمل على نفسه، إنّه جلس بين أصحابه يوماً على باب داره، فأصابه هذا الحجر الّذي شج رأسه، وصك وجهه، فدعا له فقام ودخل الدّار قائلاً: لقد وعظت يا ربيع، وأغلق الباب، وما رؤي في مجلسه حتّى مات[7].

وهكذا عاش أمير قزوين القديم، شيخ القراء، وأكبر أصحاب عبد الله، في مقام الذّل، وقد رأى الدّنيا تغيرت من حوله، وحكمها الفتية السّفهاء من بني أمية، يتطاولون على منابر الكوفة، ويقتلون النّاس بغير الحق فعاف النّاس جميعاً، بل كانت تأتيه ابنته، تقول: يا أبتاه أتأذن لي ألعب؟ فيمنعها وكان يكنس بيته بنفسه[8]، ومات في ولاية عبيد الله بن زياد، هذا الغلام الجبان السّفيه، كما دعاه معاصره الحسن البصري في البصرة، هذا الّذي قتل الحسين بن فاطمة، ولم يستطع الرّبيع بن خيثم أن يفعل شيئاً سوى أن يسترجع، ويغلق عليه داره، متمنياً الموت الّذي طالما أحبه وانتظره.

وبعد: فإنّ الكثيرين من الباحثين لم ينتهوا إلى أثر هذا العابد الكبير في تاريخ الحياة الرّوحية في الكوفة، فقد تتلمذ عليه العدد الكبير من عبادها، أو أخذوا عنه، وساروا سيرته.

ثمّ تأثر بسيرته سفيان الثّوري وسعيد بن جبير، وإن كان سعيد سيموت -فيما بعد- في يوم مشؤوم على يد الحجاج، كما أثر الرّبيع بن خيثم في الفضيل بن عياض وفي بشر الحافي، ولعل الفضيل قد تتلمذ عليه، وقد نتساءل: هل هناك أثر خارجي في أقوال الرّبيع وفي حياته، كانت المسيحية، كما نعلم، حوالي الكوفة، وأتى عدد من المسيحيين إليها، كما كان بجوارها أيضاً المندائية والدّيصانية والمرقونية والمانوية، وعاش في الكوفة عدد من اليهود.

إنّ التّأمل الباطني في حياة الرّجل وفي أقواله لا يثبت وجود أثر خارجي فيها، ففكرة الاعتزال والتّوحد، انبثقت عن

(١) أبو نعيم: الحلية ١٠٦/٢- ١٠٧، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٢/٣.
(٢) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٢/٣، وأبو نعيم: الحلية ٢١١/٢.
(٣) أبو نعيم: الحلية ١٠٨/٢، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٣/٢.
(٤) أبو نعيم: الحلية ١٠٩/٢، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٣/٢.
(٥) أبو نعيم: ١٩٢/٢.
(٦) أبو نعيم: الحلية ١١٦/٢.
(٧) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٦/٣.
(٨) نفس المصدر ٣٤/٣.

عوامل الكوفة السّياسية والاجتماعية، ولا يوجد مدخل من مداخل الرّهبنة المسيحية في اعتزال الرّبيع، كما أنّ فكرة الصّعق لم تكن خارجية، بل انبعثت من أعماق الرّجل، وقد شاهدها عبد الله بن مسعود، ولو رأى فيها ظلالاً من أثر خارجي لأنكرها، أمّا فكرة قتل النّفس، أي مجاهدتها ومعاناتها، حتّى يتخلص الإنسان من شوائبها فقد استند فيها على النّصوص القرآنية في النّفس اللوامة والنّفس المطمئنة.

وبعد: فإنّي أردد هنا أيضاً أنّ تشابه الطّريقين لا يدل على تشابكهما، اللهم إلا إذا وجدنا وثيقة تاريخية قوية، علاوة على أننا لا نجد فيما بين أيدينا من نصوص أنّ الرّجل قد اتصل برهبان أو وقف على صومعة -كما فعل عُباد البصرة.

٥- التّوابون من زهاد الكوفة:

وإذا كان عبد الله بن مسعود قد أطلق على الرّبيع بن خيثم لقب المخبت فإنّه أطلق على أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي لقب التّائب، وكما أطلق على أصحاب عبد الله فيما بعد لقب المخبتين أطلق عليهم لقب التّوابين وسيذكرهم عون بن عبد الله بن عتبة، ويقول: جالسوا التّوابين، فإنّهم أرق النّاس قلوباً، والتّوابون[١] هنا من أصحاب عبد الله بن مسعود فكأن الكلمة قد أطلقت على مجاميع من النّاس في الكوفة لا على التّوابين من الشّيعة فقط وقد كان شقيق من البكائين، بل يكاد يكون أوّل البكائين الحقيقيين من عُباد الكوفة، وقد قيل إنّه كان يستمع النّوح ويبكي، وكان إبراهيم التّيمي -من كبار عُباد الكوفة- يذكر في منازل أبي وائل، وكان أبو وائل ينتفض انتفاض الطّير، وكان ينشج في المسجد -كما تنشج المرأة- وكانت أحداث الكوفة قد ألقت ظلالها على العباد، فزادوا بكاءً ونحيباً، وقد ذكر الحجاج يوماً عنده فقال: اللهم أطعم الحجاج من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع، ثمّ يتدارك خشية من الله، فيقول: إن كان ذاك أحب إليك، وكره القراء وتهافتهم على أبواب الأمراء كما كره ابنه لتوليه القضاء[٢].

واتخذ عُباد الكوفة -كما اتخذ عُباد البصرة- التّعبد في الجبانات سنة لهم، وكان أوّل من قام بها في الكوفة معضد بن يزيد العجلي هو ومجموعة من أصحابه، وقد ذهب إليهم عبد الله بن مسعود وأمرهم بالعودة إلى بيوتهم، ولكن ما لبث أن لجأ العُباد إلى الجبانات -وعلى رأسهم الرّبيع بن خيثم- كما ذكرنا.

وكان معضد يطلق أقواله في التّعبد: «اللهم اشفني من النّوم باليسير» ويتمنى لو كان يعسوباً: «لولا ثلاث: ظمأ الهواجر، وطول ليل الشّتاء، ولذاذة التّهجد بكتاب الله عزّ وجل، ما باليت أن أكون يعسوباً»[٣].

ويختلف العابد الكوفي عمرو بن عتبة بن فرقد السّلمي مع أبيه، يريد الأب من الابن أن يترك عبادته وأن يعينه في عمله، ويسأل أصدقاء الابن أن يعينوه على إقناعه بترك العبادة، فيقول معضد: «لا تطعهم واسجد واقترب»[٤]، فقال عمرو: «يا أبت، إنما أنا عبد، أعمل في فكاك رقبتي، فدعني»، وكان يذهب مع معضد إلى المقابر، ويقف على القبور ويقول: «يا أهل القبور، قد طويت الصّحف، وقد رفعت الأعمال»، ثمّ يبكي، ويصف بين قدميه حتّى الصّباح، ثمّ يعود إلى المسجد، فيشهد صلاة الصّبح، وقد استشهد الصّديقان سوياً في إحدى الغزوات.

وما لبثت الإسرائيليات أن انتشرت لدى عُباد الكوفة، كما انتشرت لدى عُباد البصرة، فنرى خيثمة بن عبد الرّحمن بن أبي سبرة، ومن أصحاب عبد الله بن مسعود، يقول: كان عيسى(عليه السلام) يلبس الصّوف، كان يحيى(عليه السلام) يلبس الوبر، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه، أينما جنهما الليل أويا، ثم يخلط أحاديث عيسى بالقرآن فيقول: مرت بعيسى بن مريم(عليهما السلام) امرأة، فقالت: طوبى طوبى لبطن حملك، ولثدي أرضعك، فقال عيسى: بل طوبى لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه[٥]، ويكثر عبد الله بن أبي الهذيل أيضاً من الإسرائيليات، بل إنّه يورد عن موسى أنّه قال: يا رب خلقت خلقاً وهم عبادك ثمّ تحرقهم بالنّار[٦]، وسترد رابعة هذا القول في صورة مماثلة، وكان هذا النّوع من الإسرائيليات قد انتشر بين المسلمين، تؤيد به الطّوائف المختلفة منازعها.

ثمّ ظهرت فكرة تعذيب النّفس في الكوفة، يضع زيد بن الحارث العامي المتوفى سنة ٢٣هـ يده في الماء البارد طيلة الليل حتّى جمدت، وكذلك كان يفعل صديقه طلحة بن عمر بن كعب، «توفي عام ١١٢هـ»، وكان سعيد بن جبير يتمنى أن يقابل الله في مسلاخ زبيد، وكان الاثنان لا يتوسدان الفراش، أخلقهما السّهر وطول القيام[٧].

ثمّ ظهرت طائفة التّوابين، وكان من أبرز رجالها عون بن عبد الله، وكان يدعو إلى الذّكر «مجالس الذّكر، شفاء القلوب»،

(١) أبو نعيم: الحلية ١٠١/٢- ١٠٦، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ١٤/٣- ١٥.
(٢) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٥٦/٣.
(٣) أبو نعيم: الحلية ١٥٩/٢- ١٦٠، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٢٢/٣.
(٤) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ١٥٦/٤- ١٥٨.
(٥) أبو نعيم: الحلية ١٥٦/٤- ١٥٨.
(٦) أبو نعيم: الحلية ١١٧/٤- ١١٩.
(٧) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٥٣/٣- ٥٥.

و«ذكر الله، صقال القلوب»، وكان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود يتردد على أمّ الدّرداء هو وأصدقاؤه، فيقيمون مجالس الذّكر عندها وكان يطلق عليه وعلى أصحابه اسم التّوابين، وقد أثر عنهم أدعية متعددة، وكانوا أرق النّاس قلوباً، وكان يقول: قلب التّائب بمنزلة الزّجاجة، يؤثر فيها جميع ما أصابها، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة، وهم إلى الرّقة أقرب، فداووا القلوب بالتّوبة، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة، حتّى أوفدته عليها، وجالسوا التّوابين، فإنّ رحمة الله إلى التّوابين أقرب، وكان يكثر من البكاء، كان يحدثنا وللحيته رش بالدّموع[1]، وكذلك كان يفعل سعيد بن جبير، كان يبكي حتّى عمش[2].

وكان سعيد بن جبير يرنو بعينيه دائماً إلى البصرة، وكان يرى أنّهم أهل العبادة الحقة[3]، وقد وردت بعض الأخبار عن صلات سعيد بن جبير بالرّهبان، وهو يقول: لقيني راهب، فقال: يا سعيد، في الفتنة يتبين من يعبد الله ممن يعبد الطّاغوت[4]، ولكنما يلبث راهب أن يدل شرطة الحجاج على مكانه وتراه الشّرطة في صلاته فيأخذونه ودعاهم الرّاهب للمبيت في الدّير، فأبى سعيد أن يدخل بيت مشرك أبداً وبقي الليل في العراء، واقترب منه أسد، فسكن بين يديه، ونزل الرّاهب من صومعته وأسلم بين يديه[5]، وقد قتل سعيد على يد الحجاج في مشهد مثير، أزعج عُباد المسلمين جميعاً، وقد أعطى مثالاً لشهداء الصّوفية من بعده، وكان مثاله: كبش إبراهيم، الكبش الّذي فدي به إسماعيل ارتقى في الجنة، وكان عليه عهد أحمر[6].

وقد نرى نفس الصّورة، فيما بعد، لدى الحلاج، وهو يردد: «تهدى الأضاحي، وأهدي مهجتي ودمي».

وتكونت طائفة البكائين في الكوفة، كان أصحابنا البكاؤون أربعة: عبد الله بن سعيد بن أبجر المتطبب، ومحمّد بن سوقة، ومطرف بن طريف وضرار بن مرة، وكان ضرار بن مرة قد حفر قبراً في بيته يتعبد فيه[7]، كما كان يلزم البعض الجبانات يعيشون فيها، كعطوان بن عمرو التّميمي[8]، وانتشر البكاء في الكوفة، كما انتشر في البصرة، وكانوا يجتمعون في خلواتهم يبكون، كقيس بن مسلم الجدلي «توفي عام ١٢٠هـ»، ومحمّد بن حجادة ومسعر بن كدام «توفي عام ١٥٥هـ»، وكان مسعر يقول: أشتهي أن أسمع صوت باكية حزينة، وكان مسعر بن كدام يرى الحرية في اليأس من النّاس، وينشد:

ألا قد فسد الدّهر
فأضحى حلوه مُرا
وقد جربت من أهوى
فقد أنكرتهم طُرا
فألزم نفسك اليأس
من النّاس تعش حُرا

وسنرى الجنيد يتأثر بهذا الحديث فيما بعد، فيعرف التّصوف بأنّه اليأس مما في أيدي الخلائق، وقد أثر مسعر بن كدام في شيخ زهاد الكوفة سفيان الثّوري، بل تتلمذ الثّوري عليه[9].

وفي الكوفة أيضاً خرج كرز بن وبرة يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر ويضربه النّاس حتّى يغشى عليه، وعاش وسكن في جرجان، حيث تعلم «الاسم الأعظم»، طلب من الله أن يعطيه إياه على أن لا يسأل به شيئاً من الدّنيا[10]، وقد ظهرت فكرة الاسم الأعظم في البصرة، كما ستظهر في الكوفة لدى غلاة الشّيعة.

وفي مدرسة الكوفة أتى معروف الكرخي، الصّوفي البغدادي المشهور، واستمع لوعظ ابن السّماك الكوفي «المتوفى عام ١٨٣هـ»، وكان هذا نقطة تحوله إلى الحياة الزّاهدة الصّوفية كما سنرى بعد[11].

وبعد، فقد كان لمدرسة عبد الله بن مسعود الأثر الكبير في توجيه الحياة الرّوحية في الكوفة، وبالتّالي في العالم الإسلامي كلّه، اتصلت بشخصية أستاذها الكبير خادم رسول الله وصاحبه وقارئه، وكان رجلاً حديداً، لم ينحن أبداً لأحداث الحياة الطّارئة ولا تطوراتها، وأراد أن يجعل من مجتمع الكوفة مجتمعاً محمّدياً عاشه من قبل في مدينة محمّد(ﷺ)، رأى تلميذه الرّبيع بن الخيثم يصعق عند رؤية الحديدة المحماة في النّار تذكرهم جميعاً بالعذاب الأبدي، ولم ينكر، ولكنه بلا شك عجب في أعماق نفسه، ورأى مجموعة من عُباد الكوفة يتعبدون في الجبانات، ولم يعرف كما يقول عبده الرّاجحي في كتابه الرّائع عن عبد الله بن مسعود ومدرسته: هذا في سنة

(١) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣/٥٥- ٥٨، وأبو نعيم: الحلية ٤/٢٧٢.
(٢) أبو نعيم: الحلية ٤/٢٧٢.
(٣) نفس المصدر ٤/٢٧٦.
(٤) نفس المصدر ٤/٢٨.
(٥) أبو نعيم: الحلية ٤/٢٩١- ٢٩٢.
(٦) نفس المصدر ٤/٢٨٣.
(٧) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣/٦٤- ٦٥- ٦٩.
(٨) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣/٦٤- ٦٥- ٦٩.
(٩) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣/٧١.
(١٠) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣/٧٢- ٧٥.
(١١) أبو نعيم: الحلية ٤/٣٨١.

سيده، فذهب وأعادهم إلى بيوتهم، ويأتيه رجل يخبره أنّ قوماً منهم معضد بن يزيد العجلي وعمرو بن عتبة يجلسون في المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول: كبروا الله كذا وكذا، سبحوا الله كذا وكذا، واحمدوا الله كذا وكذا.

فيقول عبد الله بن مسعود: «إذا رأيتهم فعلوا ذلك فأتني فأخبرني بمجلسهم، فأتاهم وعليه برنس له، فجلس، فلما سمع ما يقولون، قام فقال: أنا عبد الله بن مسعود، والله الّذي لا إله غيره، لقد جئتم ببدعة ظلماً، ولقد فضلتم أصحاب محمّد(ﷺ) علماً، فقال معضد: والله ما جئنا ببدعة ظلماً ولا فضلنا أصحاب محمّد علماً، فقال عمرو بن عتبة: يا أبا عبد الله نستغفر الله، قال: عليكم بالطّريق فألزموه، فوالله لئن فعلتم، لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لتضلن ضلالاً بعيداً»[1].

يقول الدّكتور عبده الرّاجحي: لقد كانت أغنية الرّوح عند عبد الله بن مسعود هي القرآن العظيم وحده، يكبر ويسبح ويحمد به، وكان يرى في القرآن مأدبة الله الأزلية، أنزلها الله على الأرض، لتكون عيداً لأوّلنا وعيداً لآخرنا، ولقد تناولها هو في بطحاء مكة وفي بوادي يثرب، وأراد لأصحابه في الكوفة أن يفعلوا نفس الأمر وعلى نفس الصّورة، ولم يعلم أنّ حياة هؤلاء كانت قد تشعبت وتضخمت، وأنّهم يعانون تجربة ذاتية لم يعانها هو، لقد ملأ أرض الكوفة بقرآنه، وغناه النّاس، كلّ على هواه، ولعله عاد إلى المدينة - بلد حبيبه الّذي اصطفاه من دون الصّحابة رفيقاً دائماً له- رأى نفس الأمر، بل رآه فعلاً حين استمع في جوانب المدينة إلى قراءة غير قراءته ولعله طاب نفساً أتاه ملك الموت يدعوه إلى أن يلقى الأحبة، محمّداً وصحبه.

وسار تلامذته ورجال مدرسته بروح تعاليمه، ووصلوا إلى النّتائج الّتي لم يصل إليها، وكانوا الرّعيل الأوّل، أصحاب الرّوح في العالم الإسلامي، وعاشت تصوراتهم في أعماق الزّهد ثمّ التّصوف، وسيقدم لنا بحث عبده الرّاجحي -كما قلت- النّواحي المتعددة لحياة عبد الله بن مسعود وآرائه، وتطور مدرسته.

وفي هذه المدرسة ظهر ثلاثة من كبار العُباد، بل الزّهاد، وهم: سفيان الثّوري، وداود الطّائي، والفضيل بن عياض، ويمثل الثّلاثة تطور مدرسة عبد الله بن مسعود من دور العبادة إلى دور الزّهد، أو بمعنى أدق يمثلون أوائل التّصوف.

(١) قدمت نماذج فقط من العُباد في الكوفة، وهناك أسماء أخرى لامعة، من أهمها: إبراهيم النّخعي، وإبراهيم التّيمي ومنصور بن المعتمر السّلمي، وطلحة بن مصرف، ووراد العجلي، وبهيم العجلي، وعرفجة، وأرجو أن يقدم لنا عبده الرّاجحي دراسة وافية عن هذه الأسماء.

الفصل الثّالث

نشأة الزّهد

الزّهاد الأوائل في الكوفة:

كان للكوفة الفضل في وضع مصطلح الزّهد- علماً على جماعة تتميز عن العُباد، كما تتميز عن القراء، وتقابل الفقهاء والعلماء والمحدثين، وكانت الكوفة أصيلة حقاً، صدرت عنها نماذج الحياة الفكرية والرّوحية الإسلامية كلّها، بينما قفزت البصرة إلى العبادة إلى حياة الرّوح طفرة واحدة، تعيش في متاهات الغيوب، وتبدع العبادة الصّرفة البحتة، ثمّ يعقبها الحياة الرّوحانية، ثمّ نظرية الخلة والمحبة، ولكن كلّ ما أنتجت، إنما كان في نطاق واحد، نطاق الغيب فقط أمّا الكوفة، فقد سارت في طريق العبادة تحت اسم القراء، ثمّ انبثق عن القراء المحدثون، والعلماء والفقهاء، ثمّ انبثق عنهم أيضاً العُباد والزّهاد والصّوفية، ونشأ الزّهد وتطور وتعمق.. وأخذ يمد بغداد، كما سنرى فيما بعد.

ولقد نشأت الفكرة الزّهدية على يد ثلاثة من كبار العُباد، كما قلنا من قبل وسنرى أي أنموذج من الزّهد قد اختطه هؤلاء، وسنرى أنّهم -وتدريجياً- أسلموا الحياة الرّوحية الإسلامية إلى دائرة التّصوف البحت.

١- سفيان الثّوري: عالم الأمة وعابدها:

وكان أوّل هؤلاء الزّهاد، هو سفيان الثّوري المتوفى عام «١٦١هـ»، ولقد أجمعت مصادر الفكر الإسلامي جميعاً أنّ أبا عبد الله سفيان بن سعيد الثّوري «كان عالم الأمة وعابدها»[2]، ويقول عنه أبو نعيم: «كان العلم حليفه والزّهد أليفه».

وقد نشأ سفيان الثّوري في رحاب الكوفة، وقد وهبه أهله للحديث، فكان مُحدث الأمة، ثمّ وصل إلى الأوج في الفقه، وكان مفتي الكوفة الأكبر، وكان مذهبه يضارع مذهب أبي حنيفة، ولكن حياة الزّهد الّتي عاشها سفيان الثّوري ثم تحقق لمذهبه الذّيوع والانتشار، بينما لم يكن أبو حنيفة وتلامذته المباشرون زهاداً، فانتشر المذهب الحنفي، واندثر المذهب الثّوري.

ولسنا هنا في مجال التّأريخ لمذهب سفيان الثّوري في الفقه أو مكانته في العالم الإسلامي كمحدث، غير أنّ هذا الجانب من حياته قد اتصل أكبر اتصال بالجانب الّذي يعنينا، وهو الحياة الرّوحية لسفيان.

نشأ سفيان -كما قلت- محدثاً، وهبه أهله للعلم، وكان العلم يعني الحديث، وكان الحديث أداة الفقه، ولقد برع سفيان

(٢) أبو نعيم: الحلية ٢٥٧/٦.

في الحديث والفقه إلى أكبر حد عرفه العالم الإسلامي إبان ذلك الوقت ودعي سفيان بأمير المؤمنين في الحديث، وكانت رحلاته الأولى لجمع الحديث وروايته، وحين اكتملت أداة الحديث عنده بدأ يفتي المسلمين، فكان سفيان أفقه النّاس.

ويذكر عبد الله بن المبارك الزّاهد المشهور عنه: «ما رأيت أحداً أفضل من سفيان، ولا أرى سفيان مثل نفسه»، بل يقول الزّاهد المشهور الفضيل بن عياض: «إنّ هؤلاء أشربت قلوبهم حب أبي حنيفة، وأفرطوا فيه، حتّى لا يرون أنّ أحداً كان أعلم منه، كما أفرطت الشّيعة في حب علي، وكان والله سفيان أعلم منه»، ويقارن عبد الله بن مبارك بين مجلسه ومجلس أبي حنيفة، فيقول: «تعجبني مجالس سفيان الثّوري، كنت إذا شئت رأيته في الورع، وإذا شئت رأيته مصلياً، وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه، فأما مجلس أتيته، فلا أعلم أنّهم صلوا على النّبي(ﷺ) حتّى قاموا عن شغب -يعني مجلس أبي حنيفة وأصحابه»[1].

وكان سفيان الثّوري يعلم أنّ طلب الحديث بدون عبادة، إنما هو طلب للدنيا، فكان يردد: «الحديث أكثر من الذّهب والفضة، وليس يدرك، وفتنة الحديث أشد من فتنة الذّهب والفضة» إنّ النّاس يطلبونه للجاه، وللتقرب من السّلطان، وليس هو أبداً «من عدة الموت، ولكنه علة يتشاغل به الرّجل»، ورأى ازدحام النّاس على طلبه فكان يقول: «لولا أنّ للشيطان فيه نصيباً، ما ازدحمتم عليه»، وكم كره القراء والمحدثين حين أقبلوا على الولاة والأمراء، يطلبون عز الدّنيا بحديثهم وفقههم، وكان يردد: «إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السّلطان، فاعلم أنّه لص، فإذا رأيت أنّه يلوذ بباب الأغنياء فاعلم أنّه مراء»[2]، وكان يصرخ: «وددت أن أنجو من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا عليّ»[3].

وبدأت سياحات الرّجل أوّلاً لطلب الحديث، وثانياً سياحات العُباد الزّهاد، وهنا يقول له صديق: «يا أبا عبد الله إنّ فيك لعجباً»، فيسأله سفيان: ما الّذي بان له مني حتّى يعجب؟ فيرد الصّديق: تنقلك من بلد إلى بلد، إنّ للناس مأوى، وللسبع مأوى، وما لك مأوى تأوي إليه، وفاضت نفسه الكبيرة بالثّورة على القراء والمحدثين، فأخذ يتنقل من بلد إلى بلد، فيتنقل من الكوفة إلى الشّام، ومن الشّام إلى اليمن، ثمّ يعود إلى مكة، فيطوف ويصلي، ويكثر الطّواف ويكثر الصّلاة، ثمّ يضجع في رحاب المسجد ويظن النّاس أنّه اضطجع حتّى يصبح، ولكنه ما يلبث أن يهب من نومه، ويأخذ وجهته إلى الجبل الّذي كان يأوي إليه، فيصيب إبهام قدمه حجر، فيدميها فيضجع ويقول: «أفٍّ لها ما أكثر كدرها»[4]، وها هو يكتب إلى أحد أصدقائه -عباد بن عباد- داعياً إلى الخمول: «فإنّ هذا زمن خمول»، ويطلب منه الاعتزال عن النّاس والانفراد عنهم، والابتعاد عن أمراء المسلمين، حتّى في التّشفع ورد المظالم عن النّاس، ويرى أنّ هذا خديعة إبليس، «وإنما اتخذها فجار القراء سلماً»، وينهى حتّى عن نصيحة النّاس، ولكنه لم يستطع صبراً ألا ينهى المهدي وقد رآه يحج في أبهة وترف[5]، ويذكره بحج عمر بن الخطاب المقتصد الّذي يذهب إلى بيت الله في هدوء ودعة ومسكنة.

ولم تكن العبادة أو الزّهد عند سفيان تعني التّبطل عن التّكسب، بل دعا القراء على العمل والتّكسب من ذات أيديهم، فيذهب إلى البصرة فيجلس في مجلس العابد البصري يوسف بن عبيد، فإذا فتيان كأن على رؤوسهم الطّير، فقال: «يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح الطّريق، واعملوا ولا تكونوا عالة على النّاس»، ويدعوهم مرة أخرى إلى عدم إظهار التّخشع: «لا تزيدوا التّخشع على ما في القلب فاتقوا الله وأجملوا في الطّلب.. ولا تكونوا عيالاً على المسلمين»[6].

وبعد: فلقد رأى سفيان الثّوري أنّ الحديث ليس عدة المؤمن وأنّ النّاس إنما يتخذونه لمطالب الدّنيا، ولعل أبلغ ما يعبر عن نظرته إلى الحديث في الفترة الثّانية من حياته هو ما أطلقوه على لسانه بعد موته، حين رآه أحد أصدقائه في الحلم وسأله عما فعل الله به في آخرته، فأجاب: «عفا عني حتّى طلب الحديث»[7].

انتهت المرحلة الأولى من حياة الرّجل -مرحلة الحديث- لكي يدخل الرّجل في دور العبادة، أو بمعنى أدق مرحلة الزّهد، ولم تعرف كلمة الزّهد قبل سفيان الثّوري، كمصطلح يطلق على ترك الدّنيا، والاتجاه إلى الآخرة وها هو يقول: «الزّهد في الدّنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العبا» ويقول: «ليس الزّهد في الدّنيا، بأكل وبلبس الخشن ولا بأكل الخشب إنما الزّهد في الدّنيا قصر الأمل» وكان يردد: «ازهد الدّنيا ونم»[8]، وكان يرى أنّ الحكمة ثمرة الزّهد، ينبتها الله في قلب المؤمن.

ثمّ بدأت سياحاته مع مجموعة من الزّهاد، وسار في ركابه إبراهيم بن أدهم الصّوفي الخراساني المشهور[9]، بل

(١) أبو نعيم: الحلية ٣٥٧/٦- ٣٥٨.
(٢) نفس المصدر ٣٨٧/٦.
(٣) نفس المصدر ٣٦٣/٦- ٣٦٩.
(٤) أبو نعيم: الحلية ٣٧٥/٦.
(٥) أبو نعيم: الحلية ٣٧٢/٦- ٣٧٧.
(٦) نفس المصدر ٣٨٢/٦.
(٧) نفس المصدر ٣٨٤/٦.
(٨) أبو نعيم: الحلية ٣٨٧/٦.
(٩) نفس المصدر ٣٣٨/٦- ٤٨٩.

اعتبره إبراهيم بن أدهم «إمام الزّهاد» فيذكر صاحب الحلية دخل إبراهيم بن أدهم المسجد بيت المقدس وسفيان الثّوري وجماعة، فلما صلوا في المسجد، وصاروا في الصّحن، انحرف سفيان يريد الصّخرة، فقال له إبراهيم: يا أبا عبد الله، ارجع فإنّك قد ابتليت وصرت لنا إماماً، فلا يراك النّاس فيروه حتماً، فانصرف سفيان وقال: صدقت، فخرجا، ولم يمضِ سفيان إلى الصّخرة[١]، وبهذا نرى أنّ هذا العابد المشهور هذا الأمير الخراساني الكبير -إبراهيم بن أدهم- يعتبر سفيان الثّوري إمامه.

ونستنتج من هذا أنّ سفيان الثّوري قد أصبح في هذه المرحلة «إمام الزّهاد ومقدمهم»، ولعل السّبب في هذا أنّ الزّهاد رأوه يجمع بين علوم الدّنيا وعلوم الآخرة، فبينما شغل العُباد من قبل وفي البصرة خاصة بالتّعبد عن الرّواية، نرى سفيان الثّوري يتميز أنّه دخل البيوت من أبوابها، دخل باب العبادة من باب الفقه، أو بمعنى أدق -جمع فيما سيعرف فيما بعد عند الصّوفية بين الشّريعة والحقيقة.

والآن: ما هي حقيقة «الزّهد» الّذي بشّر به سفيان الثّوري في أرجاء العالم الإسلامي، في سياحاته الطّويلة، وقد أخذ يتنقل بين المدن والقرى والبوادي والحضر، هرباً من هارون الرّشيد مرة، ومن المهدي مرة أخرى، إنّ أجمل تحديد لهذا الزّهد، حين أتاه صديق له وسأله: «أرى النّاس يقولون سفيان الثّوري، وأنت تنام الليل، فقال لي: اسكت ملاك هذا الأمر -التقوى»[٢]، فلم يكن إذن مرده وملاكه وجوهره تعذيب الجسد من قيام مستمر بالليل، وصيام الدّهر، وإنما هو تهذيب النّفس من شوائب الدّنيا، ولذلك كان يقول: «ما عالجت شيئاً قط أشد عليّ من نفسي، مرة عليّ، ومرة لي»[٣].

هذا بالرّغم من أنّ ثيابه ونعليه قد قومت، فلم يصل ثمنها إلى أكثر من درهم وأربعة دوانيق، وكان يقضي الأيّام بدون طعام، وكان من الخائفين بل كان من البكائين، وكان يعيش في خوف دائم من عذاب الله كما كان يصلي الليالي الطّوال، وتذكر المصادر أنّه كان يستمع إلى آيات العذاب، فيطيش ويخرج هائماً، وكان يقرأ يوماً في الزّوال فمر بهذه الآية: ﴿**فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ**﴾ [المدثر: ٨- ٩] فخرج هارباً هائماً على وجهه حتّى رده أصحابه إلى الكوفة[٤]، بل إنّه خلف المقام، وفي أعماق الكعبة رفع رأسه إلى السّماء، فانقلب مغشياً عليه، فأدخلوه وصبوا عليه الماء، حتّى أفاق، ويعلق تلميذ من تلامذته: «ليس النّظر قلبه إنما قلبته الفكرة»، وكان يبكي حتّى في الصّلاة، فينقطع ثمّ يعيد التّلاوة.

وإذا كان جوهر الزّهد عنده هو التّقوى، فإنّ اليقين أيضاً هو عنصره الأساسي «ولو أنّ اليقين استقر في القلب، كما ينبغي، لطار فرحاً وحزناً، شوقاً إلى الجنة، أو خوفاً من النّار»[٥].

والعنصر الثّالث للزهد عنده هو سقوط المنزلة، فقد سئل سفيان: «ما الزّهد في الدّنيا؟» فقال: «سقوط المنزلة»[٦]، ولذلك خرج هائماً على وجهه، ورفض القضاء للمهدي، واستتر واختفى، فلما قابله أمراء المهدي، أخذ ينقدهم بعنف وقوة، مضى الرّجل مبشراً بالزّهد، في قوة وحماس، كما كان ينشر الحديث، وكان يعلن «عليكم الزّهد، يبصركم الله عورات الدّنيا، وبالورع يخفف الله عليكم حسابكم، وادفعوا الشّك باليقين، يسلم لكم دينكم» ويتنقل من مكان إلى مكان، ويكوم الحصا يستند عليه، ويتكئ وينام في الجبال، ويقول: «هذا خير من أسرتهم»[٧]، وكان يرى الزّهد الحق في سقوط المنزلة وعدم قبول الرّياسة، يقول سفيان: «ما رأيت الزّهد في شيء أقل منه في الرّياسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإذا تورّع في الرياسة، حامى عليها وعادى»[٨].

ثمّ انتهى الزّهد بسفيان الثّوري إلى الزّهد في النّاس وأوّل الزّهد في النّاس زهدك في نفسك[٩] وتمنى سفيان الموت تمنياً صادقاً، وكان يذكر الأثر: «النّاس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[١٠].

أما بعد: فقد كان لدخول سفيان الثّوري، وهو إمام العلم: الحديث والفقه، إلى حياة العبادة، ومناداته بالزّهد -علل وأسباب، **أمّا أوّلها وأهمها**: فهو العامل النّفسي، فقد كان الرّجل، يرى منذ نشأته الأولى أن على طالب الحديث أن يقضي عشرين عاماً في العبادة، فإذا طلب الحديث بعد ذلك فإنما يطلبه ابتغاء مرضاة الله، وتقرباً له، ولما سار شوطاً بعيداً في الحديث أدرك أنّه إنما يطلب للدّنيا، فتاقت نفسه للعبادة، **ثانيها**: مقابلاته المتعددة لعُباد المسلمين في الكوفة، وفي البادية، ثمّ في البصرة ومكة، وفي كلّ هذه المقابلات يظهر عالم الحديث القديم إماماً للزهاد والعُباد، فإبراهيم بن أدهم -على جلالة قدره- يعتبره إماماً، ويطلب منه ألا يقف عند الصّخرة في بيت

(١) نفس المصدر ٥٠/٨.
(٢) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٨٣/٣.
(٣) أبو نعيم: الحلية ٥/٧.
(٤) أبو نعيم: الحلية ٣٩/٧.
(٥) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٨١/٣- ٨٢.
(٦) أبو نعيم: الحلية ١٧/٧.
(٧) نفس المصدر ١٦/٧.
(٨) أبو نعيم: الحلية ٣٩/٧.
(٩) أبو نعيم: الحلية ٦٩/٧.
(١٠) أبو نعيم: الحلية ٦/٧.

المقدس حتّى يراه النّاس، فتكون سنة لمن بعده، وقد أطاع إمام الزّهاد ولم يفعل، ونحن نتساءل: هل فقه إبراهيم بن أدهم السّنة أكثر من عالمها، أم أنّ مغزى القصة أنّ سفيان الثّوري كان لم يبلغ بعد المنى الحقيقي لطرق العبادة وجوهرها، عدم الشّهرة، فرده أمير خراسان المتزهد، ولقد تنبه العباد من بعدهما إلى وجه الفرق بينهما، ولكن يبدو دائماً سفيان الثّوري في القمة في الطّريق.

لقد سئل يمان بن معاوية المشهور بالأسود العابد: «رَأَيْتَ إبراهيم بن أدهم؟ فضحك، وقال: وأكبر من إبراهيم، قيل له: من؟ قال: سفيان الثّوري ثمّ قال: سمعت أخي سفيان الثّوري يقول: ما كان الله لينعم على عبد في الدّنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم على من أنعم عليه»[1]، فالثّوري إذن قد صاحب معاوية الأسود[2]، وسار معه شوطاً، كما صاحب أبا حبيب البدوي –وهو أيضاً من كبار العباد، وهو نفسه يقول: أصبت قلبي يصلح بين مكة والمدينة بين قوم غرباء- أصحاب بتوت وعباد، كان الثّوري إذن يفتش عن هؤلاء، لكي يطمئن قلبه ويصلح، وفي الطّريق بين مكة والمدينة قابل العابد المشهور أبا حبيب البدوي، ويقص هو نفسه أنّه قال له حين قابله: «يا سفيان: هل رأيت خيراً قط إلا من الله؟ قلت: لا، قال: فلم تكره لقاء مَنْ لم تر خيراً قط إلا منه؟! يا سفيان منع الله لك عطاء، وذلك أنّه يمنعك من غير بخل ولا عدم، ولكن نظراً لك واختباراً، ثمّ قال له: يا سفيان: إنّ فيك لأنساً، وإن عنك لشغلاً»[3].

وفي مكة قابل سفيان الزّاهد الكوفي الفضيل بن عياض وكان قد استقر في مكة- وكانا يلتقيان في المسجد الحرام فما يتذكران إلا النّعم، حتّى يفترقا، يقول فضيل لسليمان: يا أبا محمّد ألا عمل بنا كذا ويقف فضيل على رأس سفيان وحوله جماعة، فقال له: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨] ويرد سفيان فيقول له: «يا أبا علي والله لا نفرح أبداً حتّى نأخذ دواء القرآن، فنضعه على داء القلب»[4]، ويتقابلان مرة ثانية، فتذاكرا وبكيا، ويقول سفيان: إنّي لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة، فرد الفضيل: ترجو، لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه علينا شؤماً، أليس نظرت إلى أحسن ما عندك، فتزينت به لي، وتزينت لك، فعبدتني وعبدتك، فبكى سفيان حتّى علا نحيبه، ثمّ قال: أحييتني أحياك الله[5].

(١) نفس المصدر ٥٢/٧.
(٢) انظر ترجمة معاوية الأسود- أبو نعيم: الحلية ٢٧١/٨- ٢٧٣.
(٣) أبو نعيم: الحلية ٦/٧، ٢٨٧/٨- ٢٨٨.
(٤) أبو نعيم: الحلية ١٧/٧.
(٥) نفس المصدر ٦٤/٧.

ويبدو هنا أيضاً الزّاهد الكوفي القديم عالياً على سفيان، ولكن الفضيل نفسه حين سئل في بعض ما كان يذهب إليه من الورع: مَنْ إمامك؟ فقال: سفيان الثّوري[6].

ثمّ نراه يسعى إلى شيبان الرّاعي، ويخرج معه للحج مشاة، ويقص سفيان أنّهما لما صارا ببعض الطّريق، إذا بأسد يعارضهما، فقال سفيان لشيبان: أما ترى هاذ الكلب قد عرض لنا، فقال لي: لا تخف يا سفيان، ثمّ صاح بالأسد فبصبص وضرب بذنبه مثل الكلب، فأخذ شيبان بأذنه فعركها، وكره سفيان هذا- وقال له: ما هذه الشّهرة، فرد شيبان الرّاعي وأي شهرة ترى يا ثوري، لولا كراهية الشّهرة، ما حملت زادي إلى مكة إلا على ظهره[7]، ويبكي سفيان بين يديه من أوّل الليل إلى آخره- ويسأل شيبان: يا سفيان، لم بكاؤك؟ إن كان لأجل المعصية، فلا تعصه، ويجيب سفيان: بأنّ الذّنوب لم تخطر بباله قط صغيرها ولا كبيرها «وليس بكائي يا شيبان من أجل المعصية، ولكن من خوف الخاتمة»، ويعلمه شيبان فيقول: «إنّ من شؤم المعصية، الإصرار على الذّنوب، فلا تعص ربك طرفة عين»[8].

وهنا يبدو شيبان معلماً «لأمير الحديث» ثمّ «إمام العُباد»، يعلمه معاني الشّهرة، ثمّ يطلب منه أن يكون في مقام المراقبة، يراقب نفسه فلا تعص الله طرفة عين.

وكما سعى سفيان إلى أبي حبيب البدوي وشيبان الرّاعي، سعى أيضاً في طلب عابد من عُباد الكوفة يقال له «الكوثاني» لمدة عشرين سنة، فلم يتمكن من مقابلته، حتّى مر يوماً بشاطئ الفرات، وقوم يعملون في الطّين، فنادى رجل منهم الآخر: «يا كوثاني» فذهب إليه سفيان، وقدم إليه نفسه، وطلب منه أن يعظه، ثمّ تركه الكوثاني وانصرف[9].

وكان سفيان الثّوري على صلات بداود الطّائي- الزّاهد الكوفي، وكان داود من تلامذة أبي حنيفة، ولم تكن الصّلات بين سفيان وأبي حنيفة طيبة، ولكن لم يمنع هذا العابد الكبير من أن يكيل المدح لداود، فكان سفيان إذا ذكر داود قال: «أبصر الطّائي أمره»[10].

كذلك كان الأمر في صلاته بالعابد الزّيدي «الحسن بن صالح بن حي» كان الحسن بن صالح بن حي من كبار محدثي الإسلام، ومن كبار عباده، بل كان درة من درر الزّهد الحقيقي،

(٦) نفس المصدر ٣/٧، والحريفش: الرّوض الفائق ص٨٧.
(٧) أبو نعيم: الحلية ٦٩/٧.
(٨) الحريفيش: الرّوض الفائق في المواعظ والرّقائق ص١١.
(٩) أبو نعيم: الحلية ٨/٧.
(١٠) نفس المصدر ٣٣٦/٧.

وكثيراً ما اجتمع بسفيان، وكان اجتماعهما اجتماع صفاء ومحبة، وقد يؤدي هذا بنا إلى إثارة فكرة زيدية سفيان، هل كان سفيان زيدياً؟ وقد حاول العلامة العراقي الدّكتور كامل الشّيبي إثبات زيدية سفيان، وقد استند على نصوص قوية تثبت هذا[١]، غير أنّ في هذا كثيراً من التّغالي، فلم يكن سفيان زيدياً- بمعنى دخوله في نظام شيعي معين، وإنما كان «كوفياً» أحب علياً، كما أحب الشّيخين، بل إنّه أحب عثمان، وكان يقول: «لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلوب نبلاء الرّجال» إنّه تولاهم جميعاً، ولكنه -كسائر الكوفيين- يفضل علياً على أبي بكر وعمر[٢]، وهذا هو سبيل العُباد والزّهاد من المسلمين، تولوا الجميع، ولكنهم أحبوا صاحب الرّوح والعابد الأوّل من صحابة محمّد رسول الله.

ولم يكن هؤلاء كلّ من قابلهم سفيان الثّوري وأثروا في اتجاهه العبادي، بحيث أصبح شيخ الزّهاد في الكوفة، بل شيخ الزّهاد في العالم الإسلامي، وأعطى للزهد -كمذهب في الحياة- صيغته المشروعة في الحياة الإسلامية، إنّ المصادر تحمل إلينا أسماء رجلاً وامرأتين كان لهما الأثر النّافذ في اتجاه سفيان الثّوري الرّوحي.

أمّا الرّجل: فهو أبو هاشم الكوفي أو أبو هاشم الصّوفي، وسنعود إلى بحث قصة أبي هاشم الكوفي بعد قليل، غير أننا نود أن نشير هنا فقط إلى أنّ المصادر تذكر أنّه كان معاصراً لسفيان الثّوري، وأنّ سفيان قال عنه: «لولا أبو هاشم ما عرفت دقيق الرّياء»، وقد ذكر هذا النّص أيضاً ابن الجوزي عن سفيان في صورة أخرى: «ما زلت أرائي، وأنا لا أشعر، حتّى جالست أبا هاشم، فأخذت منه ترك الرّياء»[٣]، ويلحظ هنا أنّ سفيان الثّوري يبحث وراء هذه الشّخصية الّتي قيل إنّها أوّل من تسمى بالصّوفي، وأنّه جلس وتعلم منه تحركات القلب في موضوع من أدق موضوعاته.

أمّا المرأتان: فأولاهما: بنت أم حسان الأسدية: ويبدو أنّه قابلها في البصرة، وكان يدخل عليها، كان يراها ساجدة، فإذا ما قامت من سجدتها يرى أثر السّجود على جبهتها، وليس به خفاء، ويطلب منها أن تذهب إلى أمير البصرة، وأن تطلب بعض زكاة ماله، لتستعين به على أمرها، إنّه ما زال في باب الفقه، وترد عليه العابدة الكبيرة: «يا سفيان، لقد كان لك في قلبي رجحان كبير، فقد أذهب الله برجحانك من قلبي، يا سفيان تأمرني أن أسأل الدّنيا من لا يملكها! وعزته وجلاله إنّي أستحي أن أسأله الدّنيا، وهو يملكها».

ويقص سفيان الثّوري أنّه كان إذا جن عليها الليل، دخلت محراباً لها، وأغلقت عليها، ثمّ نادت: «إلهي خلا كلّ حبيب بحبيبه، وأنا خالية بك يا محبوب، فما كان من سجن تسجن به من عصاك إلا جهنم، ولا عذاب إلا النّار» ودخل عليها سفيان بعد ثلاث، فإذا الجوع قد أثر في وجهها، فأخذ يترنم بالقرآن وهو جالس ينظر إليها، ثمّ يقول لها: «يا بنت أمّ حسان، إنّك لم تؤتي أكثر مما أوتي موسى والخضر(عليهما السلام)، إذ أتيا أهل القرية، فاستطعما أهلها»، فردت عليه: يا سفيان، قل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقالت: اعترفت له بالشّكر؟ قلت: نعم، قالت: وجب عليك من معرفة الشّكر شكر، وبمعرفة الشّكرين، شكر لا ينقضي، ويعترف سفيان: فقصر والله علمي، وفسد لساني، وما أقوم بشكر، كلما اعترفت له بنعمة، وجب علي بمعرفة النّعمة شكر، وبمعرفة الشّكرين شكر.. ووليت وأنا أريد الخروج، هنا تصيح فيه: يا سفيان، كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله، وكفى بالمرء علماً، أن يخشى الله.

اعلم أنّه لن تنقى القلوب من الرّدى، حتّى تكون الهموم كلّها في الله هماً واحداً.. ويقول هذا الفقيه الكبير، أمير الحديث: فقصرت والله إليّ نفسي[٤].

وفي أعماق البصرة، يقف الفقه والحديث أمام العبادة، أمام الزّهد، وتصور لنا المصادر هذا الأخير عالياً على الأوّل، وإمام الحديث وصاحب المذهب الفقهي الكبير في مجلس التّلميذ أمام المغنية الغانية، عازفة الألحان الدّنيوية، أمام رابعة العدوية، وكان يأخذ.. بيد جعفر بن سليمان ويقول له: «مر إلى المؤدبة الّتي لا أجد من أستريح إليها إذا فارقتها» هنا يقف الفقيه الكبير أمام هذه الزّاهدة، عاشقة الله، موقف التّلميذ، وهي تنهاه الدّنيا، تنهاه عن الكبر والرّياء.. وتنهاه عن الحديث كانت ترنو في دلال حزين -وقلق الحب وحيرته تحرقها- إلى محدث العالم الإسلامي الأكبر، وهو جالس بين يديها، وفي وعاء قلبه حديث محمّد(صلى الله عليه وآله)، أما هي فكانت تتغنى بالخلة، المرتبة الأخيرة للرسول، حيث اقترب، بل استهلك، في مقام قاب قوسين أو أدنى، ثمّ تقول: نعم الرّجل أنت، لولا رغبتك في الحديث.. ثمّ تنطلق تغني:

إنّي جعلتك للفؤاد محدثي
وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

(١) الدّكتور كامل الشّيبي: الصّلة ١/٢٩٦- ٢٩٧.
(٢) أبو نعيم: الحلية ٣/٣١.
(٣) ابن الجوزي: صفة الصّفوة /١٧٢.
(٤) أبو نعيم: الحلية ٣/٩- ١٠، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٤/٣٠.

ويبدو أنّ الرّجل محدث الأمة الإسلامية قد انتهى إلى الإيمان «بالخلة»، وهناك نص نادر، لم ينتبه إليه أحد من الباحثين، وذلك أنّ سفيان الثّوري قد سئل عن تفسير قول إبراهيم: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فقال سفيان: «بالخلة»[١]، «وبهذا أصبح سفيان الثّوري تلميذاً لمدرسة الخلة الّتي كانت رابعة العدوية رائدتها الأولى».

ولم تنته مدرسة سفيان الثّوري بوفاته، لقد ترك في الكوفة «حلقات الزّهد» تعمل باسمه، كما ترك بأصبهان، وقد ترك مجموعة من تلامذته، ويخبرنا صاحب الحلية عن «أصحاب سفيان الثّوري ومنزلتهم في العلم والعبادة ومكارم الأخلاق، وفواضل الأعمال»، وكان الزّهاد «تفرغ إلى أدعيتهم عند نزول المحن والأعلال، فترى الإجابة في الوقت، يقصدون من الدّيار والنّواحي البعيدة، يسألون الدّعاء في عوارضهم، فيدعون ويرون الإجابة»[٢].

وبهذا عاش مذهبه الزّهدي، كما عاش مذهبه الفقهي مدة طويلة من الزّمن، بل يرى العلامة العراقي الدّكتور كامل الشّيبي أنّ لسفيان في الزّهد مقاماً من أكبر المقامات، إنّه يرى أنّ ميل سفيان إلى المذهب الزّيدي آت من أنّ عقيدة الزّيدية تقضي بأنّ الإمام ليس معصوماً، وليس أعلم المسلمين ولا يتميز عنهم إلا بأنّه علوي فاطمي، يصلح لإمامة المسلمين، أمّا التّفوق في العلم فميسر لمن انقطع له، ويجب أن نكرر هنا أنّ هذه النّظرية الزّيدية، هي الّتي فتحت للزهاد باب الولاية، وأثارت في نفوسهم الطّموح إليها، فما دام المجال قد انفتح أمام المسلم بعمله وجهده، لا بتوقيف ولا بنص إلهيين، فقد زال الحاجز الّذي كان يطامن من غلواء الزّهاد، فرأينا سفيان نفسه يجرؤ على نقد الإمام الصّادق على لبسه الخز، وكان عيسى بن زيد بن علي يحتكم إليه[٣].

وحقاً إنّ سفيان الثّوري فتح للزهاد طريق الولاية المستندة على العمل والجهد والعلم، ولكنه لم يكن زيدياً بمعنى الكلمة، على أنّ كلّ هذا دليل على أنّ الرّجل أثر في الزّهد والزّهاد، أكبر تأثير، بل حمل عنه الزّهد مجموعة من كبار الزّهاد كعبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط

٢- داود بن نصير الطّائي «الصّمت والثّورة عالية على الفقه»:

وتظهر فكرة الزّهد -عالية على الفقه- في الكوفة أيضاً موطن الفقه، وعلى يد فقيه ومحدث هو داود بن نصير الطّائي «المتوفى عام ١٦٥هـ»، وقد اعتبرت كتب النّصوص داود الطّائي أوّل الزّهاد الرّسميين في العالم الإسلامي، وأرخوا له جميعاً في كتبهم، وكان -بالذّات- من رجال الرّسالة القشيرية، والّتي حاول صاحبها أن يؤرخ في براعة نادرة للتصوف منذ نشأته.

ولقد نشأ داود نشأة علمية خالصة، وكان العلم يعني في هذا الوقت الحديث والفقه، وتتلمذ على أبي حنيفة، وكان داود الفارس المجلي في حلقة أبي حنيفة، وفي إحدى مجالسه قال له أبو حنيفة: يا أبا سليمان أمّا الأداة فقد أحكمناها، فسأله داود: فأي شيء بقي؟ فقال أبو حنيفة: العمل به، ويقص هو نفسه: فنازعتني نفسي إلى العزلة والوحدة، فقلت لنفسي: حتّى تجلس معهم ولا تتكلم في مسألة، فجالستهم سنة، لا أتكلم في مسألة، وكانت المسألة تمر بي، وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد، ولا أتكلم به[٤].. هنا يضع داود الطّائي للصوفية من بعده طريق تصفية النّفس ونوازعها، والتّخلص من عجبها وغرورها، ويفرض على نفسه «الصّمت» أو «الصّوم عن الكلام» وهنا نتساءل: هل هنا أثر مسيحي؟ فقد كان الرّهبان يفرضون على أنفسهم الصّمت لمدد طويلة، ولا أجد في تاريخ داود الطّائي ما يثبت هذا، كان الأمر كلّه منازعة نفسية، وموقفاً داخلياً، حين نبهه أستاذه الكبير أبو حنيفة إلى فكرة العمل، وبخاصة أنّ عوامل متعددة قد دخلت في أعماق الرّجل، فقد ذكر القشيري أنّ داود كان يمر ببغداد يوماً، فنحاه المطرقون أي الحرس بين يدي الوزير حميد الطّوسي، ويبدو أنّه كان على معرفة بحميد، فقال داود: أفٍّ لدنيا سبقك بها حميد، كما يقال أيضاً: إنّ سبب زهده أنّه سمع نائحة تقول:

بأي خديك تبدي البلى
وأي عينيك إذا سالا

وترد القصة عند ابن الجوزي في صورة أخرى من أنّه سمع هذه النّائحة على مقبرة تقول: يا حبي -ليت شعري- بأي خديك بدأ البلى، بالأيمن أم بالأيسر، فصفق وتراءت أمامه الصّور، ودخل مرة أخرى إلى مقبرة، فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه
لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى في كلّ يوم وليلة
وتسلي كما تبكي وأنت حبيب[٥]

(١) أبو نعيم: الحلية ٧٦/٧.
(٢) نفس المصدر ٣٩٤/١٠.
(٣) الدّكتور الشّيبي: الصّلة ٢٩٧/١.
(٤) أبو نعيم: الحلية ٣٤٢/٧، والرّسالة القشيرية ٧٤/١.
(٥) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٧٤/٣.

وانتهى الأمر بداود أن «لزم البيت وأخذ في الجهد والعبادة»[١] أو بمعنى أدق، دخل في مرحلة قطع العلائق.

وفي هذه المرحلة كان ينادي: سبقني العابدون وقطع بي، والهفاه[٢].

أمّا آراء داود الطّائي الرّوحية: فيمكن وضعها على النّسق الآتي: إنّ العلم وحده ليس طريق النّجاة، إنّه مرحلة لا بد منها، ولكن على أن يعقبها العمل «إنّ العلم آلة العمل، فإذا أفنى عمره فيه، فمتى يعمل»[٣] وقد رأى فقه إمامه أبي حنيفة ينتهي إلى التّقنين للدنيا، وسيخرج -كما قدر هو- إلى خدمتها فقط فنشأت «الحيل الشّرعية» على يد تلامذة أبي حنيفة، فقام هو بثورته على الفقه، بل لما علم أنّه بصير، عمد إلى كتبه، فغرّقها في الفرات وكان يجيب -إذا سئل- «انقطع الجواب»[٤]، كانت ثورة عاتية على الفقه وفي مجلس أبي حنيفة نفسه، وأعلن أيضاً فكرة «الفرار من الدّنيا» إنّه ما خالط النّاس أحد إلا نسي العهد، ويحك صم الدّنيا، واجعل الفطر صوتك، ولكنه لا ينسى الفقه أبداً «اجتنب النّاس غير تارك لجماعتهم»، ويضع للمسلمين خطوات الطّريق: «كفى باليقين زهداً، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلاً»، ثمّ يضع اصطلاح المريد والزّاهد «من علامات المريدين الزّاهدين في الدّنيا ترك كلّ جليس لا يريد ما يريدون»[٥].

وألقى داود الطّائي بدلوه لا في أعماق الزّهد وحركاته، بل في أعماق التّصوف، فنرى إبراهيم بن أدهم ينقل عنه: «إنّ للخوف تحركات، تعرف في الخائفين، ومقامات يعرفها المحبون، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون، وأنّ أولئك هم الفائزون»[٦]، وكان يصيح بالليل: «إلهي همك عطل على الهموم الدّنيوية، وحال بيني وبين الرّقاد»[٧].

وهذا كلام خطير في أعماق التّصوف، ولا جرم بعد ذلك أن أتاه كبار الزّهاد من كلّ مكان، الفضيل بن عياض، وعبد الله ابن المبارك، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثّوري، وكان سفيان يبكي بين يديه، كما كان له أثره الكبير في أبي سليمان الدّاراني شيخ مدرسة الشّام.

ومن هذا نرى أنّه انبثق في أعماق هذا الفقيه الخوف العارم، خوف مشوب بالحب، ومعاناته، والشّوق وأشجانه، فعاش حياة زاهدة قاسية، لم تعرفها الكوفة فعلاً، وقد امتلأت كتب التّصوف بالأخبار التّفصيلية عن تزهده كما امتنع عن الزّواج.

ولقد رأى العلامة العراقي الدّكتور كامل الشّيبي في امتناع داود الطّائي عن الزّواج أثراً مسيحياً يقول: وزاد تأثير النّساك في داود حتّى رأيناه يتخذ التّبتل منهجاً لحياته ومظهراً لها، فبقي أربعاً وستين سنة أعزب، وقد علل ذلك بقوله: «قاسيت شهوتهنّ عند إدراكي سنة، ثمّ ذهبت شهوتهن من قلبي» فداود إذن أوّل زاهد دخل في زهده العامل المسيحي واضحاً[٨].

وفي الحقيقة إنّ من الصّعوبة بمكان تبين العامل المسيحي في زهد داود الطّائي، أو حتى في امتناعه عن الزّواج، إننا لا نرى أدنى اتصال بينه وبين الرّهبان المسيحيين، اللهم إلا إذا كانت أخبار الرّهبان قد استفاضت، ووصلت إلى أعماقه.

إنّ تزهده -كما رأينا- كان ناشئاً عن ضيقه بجمود الفقه وحيله، وابتعاده عن الفكرة الأخروية، فليس إذن ثمة مجال للقول بأنّه تأثر بالرّهبنة المسيحية ولكنني مع ذلك أود أن أعلق المسألة، أو بمعنى آخر، إنّه من المحتمل أن يكون قد تأثر في امتناعه عن الزّواج بالرّهبنة المسيحية، ولكن ليس بين أيدينا من النّصوص ما يحقق هذا تحقيقاً حاسماً، إننا قد رأينا أنّه يطلب صوم الدّنيا، وأن يكون الموت هو فطر المؤمن، ولكنه يطلب عدم مفارقة الجماعة، جماعة المسلمين، فهل في هذا أثر مسيحي أو أثر رهبنة، كما أنّ الرّجل لم يحاول قط أن يدفع بالمسلمين إلى طريقته، أو أن ينشئ دويرة، كان يرى أنّ النّاس أضعف من أن يتحملوا ما تحمل، ثمّ إنّه كان دائم الصّلاة في المسجد، فلم ينقطع عنه يوماً.

وبعد: فقد كان داود الطّائي الشّخصية الثّانية الّتي أعلنت الزّهد من مدرسة الكوفة، وسيذكر الجامي أنّه كان من أقران الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم، كما سيذكر العطار أنّه كان شيخ طريقة الرّاعي[٩].

أمّا الممثل الثّالث للزهد السّني إبّان ذلك الوقت وكان معاصراً، بل كان من أقران داود الطّائي، فهو الفضيل بن عياض، وكان الفضيل خراسانياً ولكن قيل إنّ أصله من الكوفة، ثمّ انتقلت أسرته إلى خراسان، فإذن من الأفضل أن نضعه في مدرسة خراسان وأن نبحثه فيها، هذا مع العلم بأنّه من الصّعوبة بمكان أن نفصل الاتجاهات المشتركة بين المدارس وأفرادها، علاوة على أنّ الفضيل بن عياض أتى الكوفة، وقابل داود، كما قابل سفيان الثّوري، وكذلك فعل إبراهيم بن أدهم، ثمّ إنّ الفضيل بن عياض انحدر بعد ذلك إلى مكة حيث عاش ومات.

(١) الرّسالة ٧٤/١.
(٢) أبو نعيم: الحلية ٣٣٦/٧.
(٣) أبو نعيم: الحلية ٣٤١/٧.
(٤) أبو نعيم: الحلية ٣٣٦/٧.
(٥) نفس المصدر ٣٤٦/٧.
(٦) نفس المصدر ٣٤٦/٧.
(٧) الرّسالة القشيرية ٧٥/١.
(٨) الدّكتور الشّيبي: الصّلة ٢٩٨/١.
(٩) الدّكتور الشّيبي: الصّلة ٢٩٨/١.

إنّ ما أود أن أنتهي إليه أنّ «الزّهد» كمصطلح نشأ في أعماق الكوفة، ولم يظهر في البصرة، وسنرى نفس الأمر في مصطلح التّصوف.

وأنتقل الآن إلى بحث مدرسة الكوفة الشّيعية الزّاهدة، والّتي أيدت من ناحيتها أيضاً قواعد الزّهد ثمّ التّصوف.

الفصل الرّابع

مدرسة الزّهد الشّيعي الأوّل

ولست أقصد بكلمة «الشّيعي» هنا مجموعة من النّاس اتخذت نظاماً خاصاً في الحياة يختلف عن نظام المجموعة السّنية، لم يكن الشّيعة الأوائل المقتصدون يختلفون أدنى اختلاف عن غيرهم من المسلمين، كان الجميع يتولون الشّيخين، ولكن مجموعة خاصة، ارتبطت بعلي بن أبي طالب برباط وثيق من المودة والمحبة جعلتهم يؤمنون بأحقيته بالخلافة وإمامة المسلمين قبل الشّيخين، ولكنهم أطاعوا الشّيخين، بل أطاعوا الشّيخ الثّالث أيضاً، ومن أمثال هؤلاء: أولاد بني صوحان وحجر بن عدي نفسه، ولما مات الخليفة الثّالث، ونُوزِعَ علي بن أبي طالب الخلافة، تقدم هؤلاء الشّيعة المقتصدة وحاربوا لأجل إمامهم واستشهدوا، أو ذهبوا بعد مقتل الإمام إلى بيوتهم للعبادة -نائين عن الدّنيا.

١- أويس القرني، قطب الغوث، الأشعث الأغبر:

ولقد تعودت الشّيعة أن يضعوا من أوائل رجالهم شخصية غريبة، ظهرت في الكوفة، وعليها كثير من ظلال التّاريخ، وعلى مجلى الحياة الرّوحية في الكوفة، ظهر «أويس بن عامر القرني» في بعض الأقوال، و«أويس بن أنيس» أو «أويس بن حليس» في أقوال أخرى[١].

وكان أويس أسطورة «التّصوف» فيما بعد، وقد وصفه صاحب الحلية، فقال: «سيد العباد وعلم الأصفياء من الزّهاد، بشر النّبي(ﷺ) به، وأوصى به أصحابه»[٢]، وقد اعتبر أوّل الثّمانية الّذين انتهى إليهم الزّهد من التّابعين.

أمّا عن تبشير النّبي به، فقد ورد في الحديث: «**إنّ الله عزّ وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشّعثة رؤوسهم، المغبرة وجوههم، الخمصة بطونهم، إلا من كسب الحلال الّذين إذا استأذنوا على الأمراء، لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا.. ذاك أويس القرني**»، ولما سأله الصّحابة: وما أويس القرني؟ قال «**أشهل ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، شديد الأدمة ضارب بذقنه إلى صدره، رام ببصره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن، يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يؤبه له، متزر بإزار صوف، ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض، معروف في السّماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه، ألا وإنّ تحت منكبه الأيسر، لمعة بيضاء، ألا وإنّه إذا كان يوم القيامة، قيل للعباد.. ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف فاشفع، فيشفعه الله عزّ وجل في مثل ربيعة ومضر**»، ثمّ ينادي الرّسول عمر وعلياً، ويقول لهما: «**يا عمر، يا علي، إذا أنتما لقيتماه، فاطلبا إليه أن يستغفر لكما، يغفر الله لكما**»[٣].

وبعد: فهذه صورة «قطب الغوث» الّتي انتشرت في أوساط الصّوفية فيما بعد: الصّفي الخفي البريء الأشعث الأغبر، سيد عُباد الرّوح، يمشي في طمرين، لو أقسم على الله لأبره، وإن صح الحديث لكان لفكرة «قطب الغوث» أصل إسلامي، وأيّا ما كان الأمر فإنّ عمر وعلياً مكثاً يطلبانه عشر سنين، في حجيج أهل اليمن من القرنيين، حتّى وجداه في حجيج الكوفة، راعي إبل وأجير قوم، ووقف أمامه الصّاحبان الكبيران يرددان: «نشهد أنّك أويس القرني، فاستغفر لنا يغفر الله لك» وينظر إليهما راعي الغنم في دهشة، لقد عرف أمره، ويرد عليهما: «ما أخص باستغفاري نفس ولا أحداً من ولد آدم، ولكنه في البر والبحر، في المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات»، إنّه يطلق استغفاراً كونيّاً، يملأ الدّنيا جميعاً وقد رآها قد طويت له.. ثمّ سألهما: من أنتما؟ فأجابه علي بن أبي طالب، فاستوى أويس قائماً.. وقال: «السّلام عليك يا أمير المؤمنين وأنت يا ابن أبي طالب، فجزاكما الله عن هذه الأمة خيراً..» ويطلب منه عمر أن يبقى مكانه حتّى يأتيه بنفقته وبعض ملابس وأنّ هذا المكان «ميعاد بيني وبينك» فيرد أويس: «يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك، لا أراك بعد اليوم تعرفني، ما أصنع بالنّفقة، ما اصنع بالكسوة، أما ترى عليّ إزاراً من صوف، ورداء من صوف؟ متى تراني أخرقهما؟ أما ترى نعلي مخصوفتين؟ متى تراني أبليهما؟ أما تراني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم؟ متى تراني آكلها يا أمير المؤمنين؟ إنّ بين يدي ويديك عقبة كؤوداً لا يجاوزها إلا ضامر مخفف مهزول، فأخف يرحمك الله..».

فلما سمع عمر كلامه صرخ، ونادى بأعلى صوته: «ألا ليت أمّ عمر لم تلده، يا ليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها، ألا من يأخذها، بما فيها ولها لقد وقف أمير المؤمنين»، أمير الدّنيا من

(١) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٢/٣.

(٢) أبو نعيم: الحلية ٨٩/٢.

(٣) أبو نعيم: الحلية ٨١/٢- ٨٣، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٣/٣.

«راعي الغنم الأجير» موقف التّلميذ من الأستاذ، أو بمعنى أدق موقفاً قرآنياً، موقف موسى من الخضر، موقف الفقه من التّصوف، وهل القصة كلّها حق، أم هي أسطورة من أساطير المتصوفة، حيث يقف التّصوف عالياً على الفقه، ويطلب أويس من عمر: «يا أمير المؤمنين خذ أنت هاهنا حتّى آخذ أنا هاهنا»، فولى عمر وصحبه علي ناحية مكة، وساق أويس إبله إلى أصحابه، وسلم القوم إبلهم، ثمّ اختفى، مقبلاً على العبادة[١].

هذه هي القصة الصّوفية الأسطورية لأويس القرني، ولكن المصادر تمدنا بصورة أخرى قد تكون أقرب إلى الحقيقة، هو أنّ أويساً القرني كان من عُباد الكوفة، يسير فيها مئتزراً بطمرين.. يسخر منه النّاس وهو لا يأبه لهم، لقد وصف نفسه قائلاً: «كيف الزّمان على رجل إن أصبح ظن أن لا يمسي، وإن أمسى ظن أن لا يصبح، فمبشر بالجنة أو مبشر بالنّار، إنّ الموت وذكره لم يدع المؤمن فرحاً، وإنّ علمه بحقوق الله، لم يترك له في ماله فضة ولا ذهباً، وإنّ قيامه بالحق، لم يترك صديقاً..» وأنّه كان يتصدق كلّ ليلة بما في بيته من الثّياب والطّعام، ثمّ يقول: «اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به»، فيكسوه أصدقاؤه الثّياب، ثمّ هو ينأى عن الحديث، ولا يقبل القضاء ولا الفتوى، إنّه في شغل من نفسه، وتذكر المصادر أنّ الأحاديث الصّحيحة قد استفاضت عنه، فأتى إليه العباد، كهرم بن حيان من البصرة، ولكن الرّجل يكره «الشّهرة»[٢]، «والعجب»، وحين يطلب منه هرم بن حيان الحديث يقول: «إنّي لم أدرك النّبي(ﷺ) ولم يكن لي معه صحبة، ولكن قد رأيت من رأى(ﷺ) وغيره»، فالرّجل إذن ممن أدرك عهد النّبوة، ووصل إلى الرّسول خبر تعبده وزهده -ويقال: إنّ برّه بأمّه منعه من السّفر لرؤية الرّسول- فقال: «**أويس القرني خير التّابعين بإحسان**»[٣]، ثمّ أتى من القرنين إلى الكوفة، واشتاق عمر وعلي لرؤيته، ووضعت الأسطورة، وجعل منه الصّوفية خضراً آخر.

أمّا عن وفاته، فاختلف المؤرخون، فبينما يذهب البعض أنّه مات في إحدى الغزوات زمن عمر، يذهب البعض الآخر أنّه مع علي بن أبي طالب في صفين[٤].

وإنّي لأجد أيضاً في حياة هذا العابد من عُباد الكوفة ظلالاً من آثار خارجية، لا مسيحية ولا ثانوية، وليس في لبسه الصّوف هنا صلة بمسوح الرّهبان، فقد كان لبس الصّوف عادة الرّعاة من العرب، أمّا نسبة الغوثية إليه والقطبية، فقد صورت على منوال قصة قرآنية.

أمّا عن شيعيته المقتصدة، فإننا نراها في اعتبار علي ممن بشر به، وبمقابلته من قبل الرّسول، كما أنّ قصة استشهاده مع علي قد ترجح أيضاً صلاته بآل البيت، على أنّ الشّيعية هنا -كما قلت- كانت سمة المسلمين جميعاً في ذلك العصر، اللهم إلا أهل الشّام، ولم يكن من المستغرب أن يتجه هذا الأشعث الأغبر ذو الطّمرين إلى علي بن أبي طالب رباني هذه الأمة، ليقف معه ويستشهد في حرب ضد الطّليق ابن الطّليق.

٢- زيد وصعصعة بن صوحان «تلميذا سلمان»:

وفي العراق -في البصرة والكوفة معاً- أخذت الفكرة الرّوحية عامة مكانها الكبير على يد ابني صوحان، زيد وصعصعة، وكان زيد وصعصعة تلميذين كبيرين لسلمان الفارسي، صاحباه وتلقيا عنه الكثير، وعاشا معه في المدائن وغيرها، فلا جرم أن كانا من وجوه أصحاب علي بن أبي طالب فيما بعد.

وقد كان زيد بن صوحان تلميذاً لسلمان كما قلنا -وقد ذكر السّمعاني- صاحب الأنساب -أنّ زيداً كان يكنى بأبي سلمان، بجانب كنيتيه الأخريين- أبي عبد الله، وأبي عائشة - وقد تتلمذ زيد على سلمان أثناء مقامه بالمدائن.

ولسنا هنا في مجال عرض شيعية زيد بن صوحان، ولا معارضته لعثمان، ولكن يهمنا أنّ زعيم بني عبد قيس هذا كان من رواد الحياة الرّوحية الأولى في الإسلام، وقد ذكرت من قبل أنّه أقام بالبصرة، وبنى فيها أوّل دويرة في الإسلام، وكان هو وحلقته يتذاكرون عهداً معيناً، عهداً أوّل، هل هذا العهد هو ميثاق صوفي، أو ميثاق غنوصي، أخذه زيد عن سلمان إن صح أنّ سلمان كان غنوصياً، أو أنّ ملامح يزدان أو ملامح الإنسان الأوّل عند المانوية الشّرقية في المدائن، أو هو تفسير لآية العهد في القرآن.

لم يكن زيد بن صوحان من غلاة الشّيعة[٥]، ولم يكن في هذا الوقت غلاة، كان زيد حقاً من زعماء المعارضة لعثمان، ولكن حين أمره عثمان بالتّوجه إلى الشّام، فَعَلَ سمعاً وطاعة لولي الأمر[٦]، ولكن صحبته لسلمان بلا شك، وتتلمذه عليه، ملأه بحب علي، كما ملأه أيضاً بجانب روحي أخاذ، ويذكر صاحب شذرات الذّهب أنّه «قتل في صفين سنة ست وثلاثين زيد بن صوحان من خواص علي من الصّلحاء الأتقياء»[٧].

(١) أبو نعيم: الحلية ٨٢/٢- ٨٣، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٢٤/٣- ٢٥.
(٢) أبو نعيم: الحلية ٨٣/٢- ٨٤، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٢٥/٣.
(٣) أبو نعيم: الحلية ٨٥- ٨٧، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٨/٣.
(٤) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣٩/٣- ٤٠.
(٥) السّعاني: الأنساب.. ورقة ٦٣.
(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبرى ٨٥/٦- ٨٦.
(٧) ابن العماد: شذرات الذّهب ٤٤/١.

ومن العبث أن نحاول أن نجد في حياة الرّجل آثاراً مانوية أو مزدكية أو مسيحية، إنما كان من كبار أصحاب علي وخواصه، ولم يكن علي من السّذاجة بحيث يجعل من خواصه رجلاً لا يؤمن بالإسلام -كما تركه النّبي- إيماناً كاملاً.

وكان صعصعة بن صوحان الشّخصية الثّانية من قبيلة بني عبد قيس الشّيعية الّتي يتضح فيها حياة الرّوح، ولقد كان صعصعة كوفياً خالصاً، وقد شغل بتفسير القرآن، واستمع إليه عمر بن الخطاب وقال له: «أنت أنت منا»[1]، وكان من رؤساء المعارضة الشّيعية لعثمان ولمعاوية.

وقد سيره والي عثمان على الكوفة هو وبعض المعارضين إلى الشّام لمقابلة معاوية، ويذهب ماسينيون إلى أنّ صعصعة بن صوحان هو أوّل من نادى في هذه المقابلة «عام ٣٣هـ» أمام معاوية بالنّظرية الشّيعية الّتي تجعل من إمامة آدم وإمامة علي «العين، الصّامت- شيئاً واحداً»، فكان حينئذ أحد الأفراد الّذين قدروا مقام علي في ذلك الحين[2]، ثمّ يقول ماسينيون في موضع آخر: وفي كلّ جيل يتعرف أولئك الّذين يتجسدون، الممثلين للدراما الإنسانية لطاعة الله، وأولئك الّذين يعترفون بالإمام الشّرعي ومن ينكرون -دورة بعد دورة- وهذه النّظرية القائلة بدوام التّصميم التّاريخي، وبالعود الدّوري للنماذج الكتابية، وقد ظهرت منذ سنة «٣٣هـ»، حينما أعلن صعصعة بن صوحان أنّ الإمام -وقد كان في البدء آدم- يجب أن يتعرف آنئذ في علي[3].

وقد أشار ماسينيون إلى مصدره هو والطّبري، وقد رجعت إلى الطّبري، إلى نفس النّصوص الّتي استخدمها ماسينيون، فلم أجد أبداً ما يثبت فكرة ماسينيون لا من قريب ولا من بعيد، إنّ نصوص الطّبري تذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان كان يفتخر أمام وفد الكوفة -وفيهم صعصعة- بأبيه أبي سفيان، فقال: «ولو ولد أبو سفيان النّاس، لما ولد إلا حازماً»، فأجابه صعصعة: «كذبت، لقد ولد النّاس من هو خير من أبيك، فكان منهم المحسن والمسيء والبر والفاجر»، ولم يذكر صعصعة أبداً إمامة علي، ولم يقرر أبداً أنّ إمامة علي وإمامة آدم شيء واحد، بل لم يذكر علياً على الإطلاق، وما أعجب خيال ماسينيون.

وليس معنى هذا أننا ننكر على صعصعة الجانب الرّوحي فيه، لقد كان رجلاً غارقاً في حياة الرّوح بدون أدنى شك، وأننا نرى علياً في وقعة صفين يبعثه إلى معاوية، حين منع جيش علي الماء، وذهب صعصعة إلى معاوية ووعظه، ولكن أصحاب معاوية أصروا على منع جيش علي من الرّي، وقال عبد الله بن أبي السّرح: «امنعهم الماء.. منعهم الله يوم القيامة»، فقال صعصعة: «إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر»[4]، فالرّجل إذن على إيمان مطلق بالإسلام، في حقيقته وفي مظهره، ولم يرد عنه غنوصية أو معرفة بهذه النّظرية الشّيعية الغالية المتأخرة، عودة النّماذج الكتابية، وقد كان لهذه النّظرية أثر في التّصوف الفلسفي -كما نعلم- ولكن لم يكن صعصعة بن صوحان من روادها الأوائل.

ونحن نظفر عن صعصعة بن صوحان بخير في كتاب صوفي مشهور وهو قوت القلوب، وألاحظ أنّ من يورد هذا الأثر هو الشّعبي: فقد ذكر صعصعة لابن أخيه زيد: أنا كنت أحب إلى أبيك منك، وأنت أحب إلي من ابني، خصلتان أوصيك بهما، فاحفظهما، خالص المؤمن مخالصة، وخالف الفاجر مخالفة، فإنّ الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وإنّه لحق عليك أن تخالص المؤمن[5]، ويعتبر أبو طالب المكي كلام صعصعة من أرق الكلام في الأخوة في الله، والصّحبة، والمحبة للإخوان فيه.

٣- كميل بن زياد «صاحب الوصية الرّوحية»:

وذهب علي كما نعلم، وبقي أصحابه الأولون، في أحياء الكوفة ورحباتها وقد عمها السّكون القاتل، يعيشون ذبل الشّفاة، مفترشي الجباة، أذلاء في نفوسهم، ولست أود أن أبحث الجانب الشّيعي في هؤلاء، وإنما أريد أن أتتبع مشاركتهم في إقامة الحياة الرّوحية في الإسلام، وأرسل زياد بن أبيه حجر بن عدي وأصحابه من الكوفة إلى دمشق، وقتل معاوية حجراً وأصحابه، في مقتلة اهتز لها العالم الإسلامي، وحركت قلب أمّ المؤمنين عائشة، ونحن نعلم أنّها كانت في المعسكر المناهض لعلي، ولكن لم يمنعها هذا من أن تلوم معاوية، وقابل معاوية لومها باستخفاف، وساد الكوفة، بل العالم الإسلامي كلّه الهدوء والخوف، وانقلب الكوفيون إلى العبادة وإلى الانزواء، ولكن بدأ زياد بن أبيه وابنه بعده -عبيد الله- يأخذون الخناق على أصحاب علي، وما لبث هؤلاء أن قدموا أمثلة كبرى لتدعيم حياة الرّوح في الإسلام وما فيها من فداء على مسرح الكوفة، والمشاركة فيها أكبر مشاركة -كما قلت- ومن أدق الأمثلة على هذه المشاركة، مثال: كميل بن زياد النّخعي، ويذكر

(١) الطّبري: تاريخ ٢٩١٧/١- ٢٩١٩، والاستيعاب حتّى ص١٩٧، وشخصيات قلقة في الإسلام ص٢٩.
(٢) بدوي: شخصيات قلقة ص٢٩.
(٣) دكتور بدوي: شخصيات قلقة ص٣٦.
(٤) نصر بن مزاحم المنقري: وقعة صفين «تحقيق الأستاذ عبد السّلام هارون»، ص١٦٠- ١٦١.
(٥) أبو طالب المكي: قوت القلوب ٤٤٤/٢.

ابن حجر: «أنّه كان من رؤساء الشّيعة، وذكره المدائني في عباد أهل الكوفة»[١].

وقد دعاه صاحب ميزان الاعتدال «بصاحب علي رضي الله عنه» واختلف المحدثون فيه، فبينما يذهب ابن حيان أنّه كان من المفرطين في علي، ممن يروى عنه المعضلات، منكر الحديث جداً تتقى روايته ولا يحتج به، نرى ابن سعد وابن معين يوثقانه[٢]، ولعل المعضلات الّتي كان يرويها عن علي، هي تلك اللمحات الإشراقية الّتي رواها الصّوفية من بعد على لسان علي، مروية بواسطة كميل، ولقد أورد صاحب الحلية وصية علي لكميل بن زياد[٣].

وقد كان علي يصحبه دائماً إلى الجبان، وقد تكلمنا عن هذه الوصية حين عرضنا لحياة علي بن أبي طالب الرّوحية، بل نادى علي -فيما يروي صاحب طرائق الحقائق- على لسان كميل بن زياد بأدق التّعبيرات الإشراقية: «.. الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.. وأنّها النّور الّذي يشرق من صبح الأزل، فيلوح على هياكل التّوحيد بآثاره..» لا جرم بعد ذلك أن أصبح كميل بن زياد من «رجال السّلاسل الصّوفية، وتتصل به سلسلة خرقة طريقة النّور بخشية في إيران، وبقيت أدعيته المشهورة يتلوها الشّيعة في مجموعة أدعيتهم»[٤]، وقد انتهت حياة كميل بن زياد بشهادته على يد الحجاج، وقد كان الحجاج متعطشاً لقتل أصحاب علي، وقد قال للحجاج قبل مقتله: «ولقد خبرني أمير المؤمنين أنّك قاتلي»، وكان مقتله عام «٨٨هـ»[٥].

٤- ميثم التّمار:

وكان ميثم التّمار من خواص الإمام علي، وكان أعجمياً، ويقال: إنّه كان عبداً لامرأة من بني أسد، فاشتراه علي منها وأعتقه، وقد بشّر علي بأنّه سيموت مصلوباً، وعاش الرّجل عيشة زهد وتنسك بعد وفاة صديقه وإمامة، وجاء عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة.. أتى بميثم إليه وأمر بصلبه وقتله.. وحين رفعوه على خشبته، أخذ يحدث النّاس بفضائل علي وبني هاشم، فقيل لابن زياد: قد فضحكم هذا العبد، قال: ألجموه، فكان أوّل من ألجم في الإسلام، فلما كان اليوم الثّالث من صلبه، طعن بالحربة، فكبر ثمّ مات[٦].

(١) ابن حجر: تهذيب ٤٤٧/٨- ٤٤٨.
(٢) الذّهبي: ميزان الاعتدال ٤١٥/٣.
(٣) أبو نعيم: الحلية ٧٩/١- ٨٠.
(٤) الدّكتور كامل مصطفى الشّيبي: الصّلة ص٢٦٢- ٢٧٤.
(٥) البراقي: تاريخ الكوفة ص٣٢٤.
(٦) البراقي: تاريخ الكوفة ص٢٩٨.

٥- رشيد الهجري «رشيد البلايا»:

وكذلك كان رشيد الهجري، وهو شخصية غامضة ذات أهمية كبرى في تاريخ التّشيع الأوّل وفي تاريخ التّصوف، أمّا عن مكانته في التّشيع، فقد ذهب مؤرخو الشّيعة إلى أنّه كان من وجوه أصحاب علي، وأنّ الإمام علياً كان يدعوه برشيد البلايا، -وكان في رأي الشّيعة- قد ألقى عليه علم البلايا والمنايا، فكان يلقى الرّجل ويقول له: يا فلان بن فلان، تموت ميتة كذا، وأنت يا فلان تقتل قتلة كذا، فيكون الأمر كما قال، ومن الملاحظ أنّ الشّيعة أرادت أن تضع مقامه بالنّسبة لعلي، كمقام حذيفة بن اليمان بالنّسبة للنبي محمّد(ﷺ)، فإذا كان قد ألقي إلى حذيفة علم المنافقين بواسطة الرّسول، فقد ألقي إلى رشيد علم المنايا بواسطة علي.

ويذهب الشّيعة أيضاً إلى أنّه كان يتشكل في الصّور المختلفة، وأنّه اختفى في عهد ولاية زياد بن أبيه، فكان يدخل البيوت فلا يراه أحد، بل يقبل على زياد نفسه في صورة صديق لزياد شامي، بحيث يقول له هذا الصّديق، وقد خشي أوّل الأمر دخوله عليه: «أما إذا كان عندك من العلم، مثل ما رأى، فاصنع ما بدا لك، وأدخل علينا كيف شئت»، وقد صيغت قصة الصّوفي المتأخر قضيب البان «المتوفى سنة ١٠٤٠هـ» على هذه الصّورة، فقد كان أيضاً يتشكل في الصّور كيف يشاء.

وكان الإمام علي قد ألقي إليه أنّه سيقتل على يد بني أمية، وقال له: «يا رشيد، كيف صبرك متى أرسل إليك دَعِي بني أمية، فقطع يديك ورجليك ولسانك»، فقال رشيد: «يا أمير المؤمنين آخر ذلك الجنة»، فقال: «يا رشيد أنت معي في الدّنيا والآخرة»، وحين أتى عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة دعا رشيداً وطلب منه البراءة من علي، وكان في استطاعة رشيد أن يتقي، ولكن كان لا بد له أن يحقق نبوءة الإمام، فأبى أن يبرأ منه، فقال له ابن زياد: «فبأي ميتة تموت»، فقال له: أخبرني خليلي أنّك تدعوني إلى البراءة منه، فلا أبرأ، فتقدمني وتقطع يدي ورجلي ولساني، فقال: والله لأكذبن قوله، فقدموه فقطعوا يديه ورجليه وتركوا لسانه، فحملت ابنته قنوا أطراف يديه ورجليه، وقالت: يا أبتي: هل تجد ألماً مما أصابك، فقال: لا يا ابنتي، إلا كالرّخام بين النّاس، فلما احتملوه وأخرجوه من القصر، اجتمع النّاس حوله، فقال: ائتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى يوم السّاعة، وعلم ابن زياد بالأمر، فأرسل إليه الحجام، حتّى قطع لسانه، فمات[٧].

تلك هي القصة الّتي يذكرها الشّيعة عن حياته وموته، وهي تشبه إلى حد ما قصة الحلاج، وقد اعتبره بعض

(٧) البراقي: تاريخ الكوفة ص٢٩٩- ٣٠٠.

المؤرخين غنوصياً قائماً، ويذكرون أنّه سمع علياً على المنبر يقول: دابة الأرض تأكل بفيها، وتحدث باستها، فقال رشيد الهجري: أشهد أنّك تلك الدّابة، فقال له علي قولاً شديداً، ويذكر الشّعبي أنّه ذهب إليه، فاستمع إليه يقول: أتينا الحسن بعد موت علي، فقلنا: أدخلنا على أمير المؤمنين، فقال: إنّه قد مات، قلنا: لا، ولكنه حي، يعرف الآن من تحت الدّثار، قال إذا عرفتم هذا، فادخلوا عليه ولا تهيجوه، ويذكرون أيضاً أنّه ذهب للحج بعد موت علي، فقال: لأبدأه بأمير المؤمنين، فأتى بيت علي فقال لإنسان على الباب: استأذن لي على أمير المؤمنين، قال: أوليس قد مات، قلت: قد مات فيكم: والله إنّه ليتنفس الآن نفس الحي، قال: أما إذا عرفت سر آل محمّد فادخل، فدخلت على أمير المؤمنين وأنبأني بأشياء تكون، فهو إذن يؤمن الرّجعة، وبلغ الخبر زياداً فبعث إلى رشيد وقطع لسانه، وقتله[1].

وسواء صحت رواية مؤرخي الشّيعة في رشيد الهجري أو رواية مؤرخي السّنة، فإنّ حياة رشيد الهجري وآراءَه قد ألقت ظلالها على التّصوف فيما بعد، فالصّوفية يذهبون إلى نسبة نوع العلم اللدني إلى «الشّيخ» يعرف به أقدار النّاس ومصائرهم، كما أنّ فكرة حياة «الشّيخ» بعد الموت ومناجاته لأتباعه فكرة مقررة لدى الكثيرين من الصّوفية.

٦- أبو صالح ماهان الحنفي:

ولكن ما تلبث مشاركة الشّيعة الأوائل في الحياة الرّوحية في الإسلام، أن تظهر بصورة واضحة لدى شخصية زاهدة من شخصيات الكوفة، وهي شخصية أبي صالح ماهان الحنفي، وبينما أهملت كتب التّصوف السّني ذكر رشيد الهجري وميثم التّمار، ولم تعتبرهما من رجال التّصوف، أفردت مكاناً لأبي صالح، وكان أبو صالح من خاصة أصحاب علي أيضاً، وبعد وفاة علي، أخذ الرّجل يقضي حياته في العبادة «ولا يفترض التّكبير والتّسبيح والتّهليل..» وقد كان يقول: «الحق ثقيل وابن آدم ضعيف والذّكر ساعة بعد ساعة»، وكان يعظ فيقول: «أما يستحي أحدكم أن تكون دابته الّتي تركب، وثوبه الّذي يلبس، أكثر ذكراً لله منه»، وسئل عن أعمال القوم من السّلف، فقال: «كانت أعمالهم قليلة، وكانت سليمة»[2].

ويبدو أنّ الرّجل كان يحس بما سيصيبه من ألم وصلب وقتل على يد الحجاج، فكان يردد: «ما أبلى ما قالت ابنتي، أأعافى فأشكر، أو أبتلى فأصبر».

وكان الحجاج يفتش عن أصحاب علي كما قلنا، فيطلب منهم البراءة منه وسبه أو يقتل الشّخص، ويبدو أنّه أبى، فأمر الحجاج به أن يصلب، وحين رفع على خشبته، كان يسبح ويهلل ويكبر.

وهنا يقف أبو صالح ماهان الحنفي موقفاً من أدق المواقف الرّوحية حقاً، سيعيده الحلاج فيما بعد، فقد اقترب منه أبو إسحاق الشّيباني متفكراً وهو ينظر إليه، فصاح ماهان فيه: «تنح يا بن أخي لا تسأل عن هذا المقام»، وسيردد الحلاج هذا - فيما بعد- حين صلب وقطعت يداه، هذا أوّل مقامات التّصوف، ويقترب منه عمار الدّهني مع غوغاء النّاس، فيصيح فيه ماهان: «يا عمار وأنت فيهم» فذهب عمار وتركه، واحتمل الرّجل على خشبته القطع والموت صابراً[3].

صورة تكاد تكون متشابهة، لما حدث للحلاج فيما بعد، وقد قتل الحلاج لغنوصيته، أمّا أبو صالح ماهان الحنفي، فقد قتل لإخلاصه لآل بيت رسول الله.

هذه صورة من صور الحياة الرّوحية لدى وجوه أصحاب علي، شاركوا في الحياة الرّوحية في الإسلام أكبر مشاركة، وقدموا في طرقات الكوفة وأسواقها مثلاً علياً للفداء، ودخلت هذه المثل كما قلت في أعماق الزّهد، ثمّ التّصوف بمعنى الكلمة، ولكن ما لبث التّشيع أن تطور وافترق، وأصبح لهؤلاء المتفرقين سمات خاصة تميزه عن الآخر، ولكن شارك الجميع، كما سنرى في أعماق الحياة الرّوحية في الإسلام، وبالتّالي في الزّهد والتّصوف، ومن الملاحظ أنّ للتّشيع المعتدل أثر في التّصوف المعتدل، وأثر التّشيع الغالي في التّصوف الفلسفي الغنوصي، وينقدح التّشيع المعتدل في الكوفة في طائفة التّوابين، كما يظهر في الزّيود.. وكان لهاتين الطّائفتين أثر كبير في التّصوف المعتدل ذي النّزعة السّنية، أمّا التّشيع الغالي -فقد أثر في التّصوف الفلسفي- كما سنرى بعد.

أمّا التّشيع الإمامي، بمعنى الكلمة، وهو التّشيع الّذي أحاط بالأئمّة وعباراتهم، أو ما حملوا من عبارات فلم يكن في الكوفة، وإنما ظهر في المدينة، ومن الأولى أن نعالجه حين نبحث في الحياة الرّوحية في مدارس الحجاز.

إنّ الحركة الشّيعية الإمامية الوحيدة الّتي أثرت في مجرى الحياة الرّوحية في الإسلام -في الكوفة- وبالتّالي في الزّهاد والصّوفية هي حركة التّوابين، كان هؤلاء التّوابون من أصحاب الإمام علي، وعلى رأسهم الصّحابي سليمان بن صرد.. وكانوا قد تعهدوا للحسين بنصرته، فلما أتى إلى مشارف الكوفة خذلوه، وقتل ابن بنت رسول الله وحيداً في الفلاة، وانكفأ هؤلاء على العبادة والتّبتل، وعاشوا في التّوبة نهاراً وليلاً، ثمّ ما لبث أن تكونت أوّل جماعة روحية في الإسلام، تستند على نص

(١) الذّهبي: ميزان الاعتدال ٢/٥١- ٥٢.

(٢) أبو نعيم: الحلية ٤/٣٦٤- ٣٦٧.

(٣) ابن الجوزي: صفة الصّفوة ٣/٤٠.

قرآني: ﴿فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]، وخرجوا إلى طرقات الكوفة، وهم شيعة من البصرة والمدائن عانوا التّجربة الرّوحية نفسها وهم جميعاً يرددون: «أقلنا - ربنا- تفريطنا فقد تبنا»، ويعلق العلامة العراقي على هذه الحركة قائلاً: «وتبين حركة التّوابين مدى ما أثر قتل الحسين في نفوس المسلمين، حتّى وجدنا هذه الطّائفة تخرج دون قيادة ودون طمع في ملك ودون تنظيم، لمجرد الانتحار والتّكفير ببذل النّفس»[١]، ونحن نعلم بعد ذلك أنّهم قتلوا جميعاً في عين الوردة، قبلوا الموت في هدوء واطمئنان وراحة نفسية.

ولقد ذكرت من قبل أنّه كانت هناك حركة توابين أيضاً بين صوفية الكوفة من أهل السّنة.. والمهم أن نلاحظ هنا أنّ حركة التّوابين هذه سواء في أوساط الشّيعة، أو أوساط السّنة قد ارتبطت بآل البيت، فتابت الحلقتان عن الحياة كلّها.. وانعكس هذا على من تلا هؤلاء من زهاد وصوفية، فكان مقام التّوبة من أهم مقامات التّصوف كما سنرى بعد.

الفصل الخامس

التّشيع الزّيدي والحياة الرّوحية في الإسلام

إنّ من الغرابة بمكان أن نقول: إنّه انبثق عن التّشيع الزّيدي جانب روحي عاون على تدعيم الزّهد ثمّ التّصوف من بعده، إنّ مؤسس المذهب كان رجلاً من آل البيت، اعتنق المذهب المعتزلي، ونحن نعلم أنّ المذهب المعتزلي مذهب عقلي، لا يؤمن بالجوانب الرّوحية، بل هاجمها، واعتبر العقل المجرد وحده مقياس الأشياء جميعاً.

حقاً كان زيد بن علي زاهداً كما كان المعتزلة، ولكن لا نظفر منه بلمحات روحية أو اتجاه ذوقي، ثمّ مات في ملحمة كبرى في طرقات الكوف، أعادت إلى أذهان المسلمين ملحمة جدّه الأكبر الحسين بن علي، فهل كانت هذه الميتة سبباً في إذكاء حياة روحية لدى الزّيود من أتباعه، كما كانت سبباً في اجتذاب الزّهاد والعُباد إلى مذهبه، فسارعوا في الالتفاف حول كلّ حركة زيدية قامت بعد ذلك.

لقد رأى الدّكتور الشّيبي، وهو يتحدث عن الصّلات بين التّشيع والتّصوف أنّ زيداً كان زاهداً شأن المتدينين المخلصين في ذلك الوقت الّذي انتشر فيه التّصوف تعبيراً عن معارضة صامتة إزاء ما فرضه سليمان بن عبد الملك «المتوفى سنة ٩١هـ» وكذلك هشام بن الحكم «المتوفى سنة ١٢٥هـ» من لبس الخز «وكان زيد يذكر الله فيغشى عليه حتّى يقول القائل: ما يرجع على الدّنيا»، وقد أدى هذا إلى أنّ أهل النّسك كانوا لا يعدلون بزيد أحداً.. ثمّ يرى الشّيبي أنّ مجموعة من الزّهاد التفوا حول زيد -كمنصور بن المعتمر- الّذي كان يدعو إلى الخروج مع زيد، وسفيان الثّوري الزّاهد المشهور، والزّاهدان عبد الله بن عطاء وابن هرمز.

ويرى الشّيبي أنّ الأئمّة الزّيديين -كانوا كزيد- مجموعة من الزّهاد المتقشفين، بل كان منهم من يسمى بالصّوفي، كمحمّد بن يحيى بن عبد الله بن محمّد بن عمر بن علي بن أبي طالب، كما كان محمّد بن جعفر الصّادق يخرج إلى الصّلاة بمكة في «سنة ٢٠٠هـ» بمائتي رجل من الجارودية، وعليهم ثياب الصّوف وسيماء الخير ظاهر.. وكان هناك ثائر زيدي آخر يوصف بالصّوفي، وهو محمّد بن القاسم، لأنّه كان يدمن لبس الثّياب من الصّوف الأبيض، ثمّ خرج ابن خالد الأحمر الزّاهد المشهور مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في حركة زيدية عنيفة بالبصرة[٢].

ولكن كان أهم زهاد الزّيدية جميعاً الحسن بن صالح بن حيي وأخوه علي وأمّهما، وقد احتل الحسن بن صالح بن حيي مكانه الكبير في كتب طبقات الصّوفية في العالم الإسلامي، بل نرى عالماً حنبلياً كابن الجوزي يؤرخ له، وقد تكلمت عن الحسن بن صالح -كزيدي- في كتابي نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام الجزء الثّاني[٣]، ولسنا في حاجة إلى عرض هذا الجانب من حياة الحسن بن صالح في هذا الكتاب، وأشرت هناك في إيجاز إلى أنّه عرف «بالعبادة والزّهد»، بل كان أكثر النّاس إعراضاً عن «الرّياسة»، ويذكر أنّ الحسن وأخاه علياً وأمّهما كانوا يقضون الليل في العبادة، وقد «جزؤوا الليل ثلاثة أجزاء، فكان علي يقوم الثّلث ويقوم الحسن الثّلث، ثمّ ينام وتقوم أمّهما الثّلث، فماتت أمّهما، فجزأا الليل بينهما، فكانا يقومان به حتّى الصّباح، ثمّ مات علي فقام الحسن به كلّه»[٤].

كانت أسرة ابن حيي كلّها تعيش إذن في التّبتل والعبادة، يتعاونون على العبادة بالليل لا ينامون، وبالنّهار لا يفطرون، وكان يقال للحسن بالذّات «حية الوادي»، ويقصدون بهذا أنّه لا ينام بالليل!

وعاش الحسن كما عاش أخوه، عيشة تجرد وفقر، وكانا يرفضان العطايا، وكان الخليفة المهدي على استعداد لشراء الرّجل بأي ثمن، حتّى يترك زيديته، ولكنه أبى، وكان يعيش

(١) الدّكتور كامل الشّيبي: الصّلة ١٠١/١.

(٢) الدّكتور الشّيبي: الصّلة ١٧٦/١- ١٨٦.

(٣) النّشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الطّبعة الأولى لدار السّلام «١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م»، ٨٢٦/٢- ٨٢٧- ٨٢٨.

(٤) أبو نعيم: الحلية ٣٢٨/٧، وابن الجوزي: صفة الصّفوة ٨٧/٣- ٨٨.

متخفياً، وكان يقول: «ربما أصبحت، وما عندي درهم، وكأن الدّنيا كلّها قد صيرت لي، وهي في كفي»، وكان طفله يأتيه يطلب الطّعام وليس لديه شيء فيعلله بشيء، حتّى يبيع خادمه غزل مولاته،فيشتري شيئاً من الشّعير، يطحنه الخادم، ثمّ يعجنه، وكان يتردد على المقابر، كعادة العُباد، فيغشى عليه، ودخل السّوق مرة، فرأى هذا يخيط وهذا يصنع، رأى النّاس في شغل عن ربهم بمعاشهم فبكى[1]، ثمّ قال لصاحبه: انظر إليهم يعللون حتّى يأتيهم الموت، ويذكرنا هذا بموقف أبي يزيد البسطامي حين رأى النّاس يتعللون بمعاشهم، فاعتلى المئذنة، وكبر عليهم أربعة، إنّهم موتى في حياتهم، فكبر عليهم تكبيرة الموت.

وقد ترك الحسن بن صالح كلمات مأثورة في أخلاق العُباد «فتشنا الورع فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان»، «العمل بالحسنة قوة في البدن ونور في القلب، وضوء في البصر، والعمل بالسّيئة وهن في البدن وظلمة في القلب وعمى في البصر..» ويرى أنّ «الليل والنّهار يبليان كلّ جديد، ويقربان كلّ بعيد، ويأتيان بكلّ موعود ووعيد.. ويقول النّهار: يا بن آدم، اغتنمني فإنّك لا تدري، لعله يوم لا يوم لك بعدي، ويقول له الليل مثل ذلك»، وكان الفقه قد ازدهر في أيّامه، ورأى الفقهاء يتزاحمون على أبواب الأمراء فكان يقول: «لا تفقه حتّى لا تبالي في يد من كانت الدّنيا، بل إنّ الشّيطان ليستخدم هؤلاء الفقهاء موهماً لهم أنّه يفتح لهم باب الخير، ولكنه يريد باباً من أبواب السّوء».

ويعتلي الحسن بن صالح المئذنة لكي يؤذن، فإذا به يصرخ ويبكي كما يبكي أصحاب أهل المصائب.. بل يغشى عليه، حتّى يؤذن غيره، وقد كان الحسن بن صالح على صلات كبرى بزهاد عصره، بسفيان الثّوري الّذي كان الحسن يدعوه بالشّفاء، ولكن سفيان قد كره فكرته في الخروج على الإمام الظّالم، وكان سفيان ينكرها برغم المسحة الزّيدية الّتي لازمته هو نفسه، ولكن صلاته الكبرى كانت بشيخ زهاد الشّام أبي سليمان الدّاراني وكان يقول عنه، ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه والخشوع من الحسن بن صالح بن حيي، قرأ ليلة: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، فغشي عليه، فلم يختمها حتّى طلع الفجر[2]، ولقد أثر الحسن بن صالح بن حيي في أحمد بن عيسى بن زيد، وقد عاش أحمد بن عيسى إلى خلافة الرّشيد، وتنسك وتزهد وكان الزّيدية يجتمعون إليه، ونمى الأمر إلى الرّشيد فأخذه وحبسه، ولكنه «هرب من حبسه وتوارى»[3].

(١) أبو نعيم: الحلية ٣٢٨/٧- ٣٢٩.
(٢) أبو نعيم: الحلية ٣٢٨/٧.
(٣) النّشار: نشأة الفكر، الطّبعة الأولى لدار السّلام «١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م»، ٨١٨/٢.

كانت الزّيدية إذن حركة زهد وتقشف، وقد تكوّن «الزّهد» كمصطلح حينئذ، وكان له مراسمه وطقوسه، فهل أثر الزّهد الزّيدي فيه، لا أرى هذا على الإطلاق، لقد كان زهد الزّيدية يشبه زهد الخوارج، تقشف وورع، وإغراق في العبادة، وفيما خلا الحسن بن صالح بن حيي لا نظفر منهم أبداً بلمحات روحية أو بإشراقة قلبية، كان الاعتزال العقلي يحكمه، وفكرة الخروج تسيطر عليه.. وما أبعد هذا عن الزّهد كمصطلح وعن الزّهاد كمجموعة.

الفصل السّادس

التّشيع الغالي في الكوفة وأثره في الزّهد والتّصوف

لقد حاولت من قبل -في الجزء الثّاني من نشأة الفكر- أن أكشف عن نشأة التّشيع الغالي ومداه وتطوره، وانتهيت إلى أنّ هذا التّشيع الغالي كان نوعاً من الحب، غلا فيه أصحابه، حين رأوا عترة أهل البيت يتساقطون واحداً بعد واحد، تحت سيوف الطّغاة من بني أمية، ورأوا ذل الأئمّة، وانكسار قلوبهم، يعيشون في انكسار وشظف من العيش في جنبات المدينة، فقدموا لهم الحب الغالي، وأحاطوهم بالأسطورة..

هكذا بدأ التّشيع الغالي، باباً ولج فيه أحبة أهل البيت، ثمّ ولج فيه -وكانت فرصة نادرة- الضّاغنون على الإسلام من فرس ويهود، وانقلب وتطور إلى أكبر مؤامرة على العقيدة نفسها سواء أكانت سنية أم شيعية، وسأحاول أن ألمس هنا أثر هذا الغلو في الزّهد والتّصوف، وقد كان هذا الأثر -كما سنرى- كبيراً.

لقد نشأ التّشيع الغالي -كما نعلم- وفي أوّل ظهوره لدى امرأتين من نساء الكوفة هما: هند بنت المتكلفة النّاعطية، وليلى بنت قمامة المزنية النّاعطية، وبينما يسخر الجاحظ من ليلى النّاعطية في كتاب الحيوان، ويعتبرها -في محاولة مضحكة- من البخلاء، تراه في البيان والتّبيين يعتبرها من النّاسكات والزّاهدات، فيقول في باب ذكر النّساك والزّهاد: «ومن نساء الغالية، ليلى النّاعطية والصّدوف وهند»[4]، وقد بينت في نشأة الفكرة -لدى الصّوفية فيما بعد- فكرة «الحزقة».

وقد كانت هند وليلى من النّساء الكيسانيات، وقد قيل: إنّ البداء قد ظهر في بيتهما، ونحن نتساءل: هل كان للبداء من أثر لدى الصّوفية؟ ولا أرى هذا أبداً، غير أنّ فكرة المهدي قد ظهرت -أوّل ما ظهرت لدى الكيسانية- من أتباع محمّد بن الحنفية، ولفكرة المهدي عامة أثر كبير لدى طوائف الصّوفية

(٤) الجاحظ: البيان والتّبيين ٢٣٢/١، وانظر: نشأة الفكر، دار السّلام «١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م»، ٧٣٣/٢.

جميعاً أخذت صوراً مختلفة، وتشوق لها الصّوفية جميعاً، ولكننا نخطو خطوة حاسمة، فتقول: هل يمكن أن تكون فكرة المهدي أساس فكرة الغوث.

هل صيغت فكرة الغوث بما لديه من قوة على التّخفي والانتقال على صورة المهدي المختفي الّذي يظهر لكلّ البشر من أتباعه بين الحين والحين، هل أخذت فكرة المهدي من قصة الخضر القرآني وصيغت على مثاله، وأخذ الصّوفية فكرة الغوث من المصدرين: المصدر القرآني الأصيل في قصة الخضر، والمصدر الشّيعي التّابع للمصدر القرآني في فكرة المهدي.

إنّ المسألة تحتاج إلى بحث أوسع، غير أنّ الدّكتور كامل الشّيبي يرى أنّ الفكرة ظهرت في الحلاج، فأسبغت عليه المهدية، ولكن هنا أيضاً مجال للتساؤل: هل كان الحلاج، حين ادعى المهدية أو حين نسبت إليه «المهدي»، يتكلم باسم التّصوف أو باسم التّشيع، إنّ صوفية عصره -وفي مدرسة بغداد بالذّات- لم يدّعوا المهدية أبداً، وكان لهم الأتباع العديدون، فهل كان الحلاج -يختلف عنهم- في أنّه كان إسماعيلياً، أو شيعياً إمامياً، ويلاحظ الدّكتور كامل الشّيبي نفسه أنّ الحلاج كان معاصراً لأحد وكلاء المهدي الشّيعي وأنّه كان يدعي بابيته[١].

وظهرت فكرة الرّجعة في هذه الأثناء، فهل أثرت هذه الفكرة أيضاً في نظريات الصّوفية؟ لا أجد لها أثراً بعد، وإن كان الشّيبي يرى أنّ الرّجعة قد دخلت التّصوف بكلّ تفاصيلها حتّى ما يتصل منها بالقيامة الصّغرى والقيامة الكبرى، ووضع ابن عربي مثالاً لها في تفسيره للحاقة: «هي السّاعة الواجبة الوقوع الّتي لا ريب فيها، إن أريد بها القيامة الصّغرى، ويسمى النّبأ العظيم القيامة الكبرى»[٢]، غير أنّه ينبغي أن نأخذ المسائل بحذر، إنّ ابن عربي يستخدم كلّ مصطلح شيعي وغير شيعي في تأييد نظرية وحدة الوجود الّتي لونت مذهبه إن في تفصيلاته وإن في كلياته، ثمّ إنّ القيامة الصغرى والقيامة الكبرى متصلتان بعقيدة الغيبة الشّيعية الاثني عشرية أكثر من اتصالهما بعقيدة الرّجعة عامة عند الكيسانية، وإنني لا أجد أبداً عقيدة الرّجعة بمعناها العام أو بمعناها الكيساني لدى الصّوفية إطلاقاً.

وأنتقل الآن إلى عقائد الغلاة الأخرى:

١- **الإمامة**: لقد أثرت فكرة الإمام في شكلها الغالي المنبثق من الكوفة، أو شكلها المعتدل المنبثق من المدينة في التّصوف الفلسفي بلا شك، وذلك منذ القرن الثّالث الهجري، استخدم الغلاة والمعتدلون مصطلح الإمام ولم يستخدمه الصّوفية، بل استخدموا كلمة «الولي»، ولم تنسب كلمة «الولي»، إلى واحد من الأئمّة، اللهم إلا مرة واحدة نسبت فيها الكلمة إلى الإمام الأوّل علي، فذكر أنّه «علي ولي الله»، ثمّ استخدمت كلمة الولاية منسوبة إلى الأئمّة منذ القرن السّادس، ولكن الشّيعة الغالية في الكوفة، وكذلك الشّيعة الإمامية في المدينة نسبت إلى الإمام عنصرين: عنصراً كوزمولوجياً -أي وجودياً- وعنصراً إبستمولوجياً -أي عنصر معرفة- وقد انتقلت هذه النّسبة إلى التّصوف الفلسفي منذ القرن الثّالث الهجري، فنسب إلى شيوخ الصّوفية، وإلى ما أسموه بقطب الغوث الجانبين أيضاً، الكوزمولوجي والإبستمولوجي، فكما وجد الكون للإمام، وإليه تدبيره وتصريفه، كذلك الأمر بالنّسبة للشيخ أو للقطب، ونشأت فكرة النّور المحمّدي حول الإمام جعفر الصّادق، ثمّ استخدمها الغلاة أشنع استخدام، وانتقلت إلى التّصوف.

وبينما نسب للإمام المعرفة، واعتبر مصدر العلم في الوجود، فكذلك نسب للشيخ المعرفة، حقاً: إنّ معرفة الإمام معرفة متوارثة، متلقاة من الإمام الّذي سبقه، ولكن معرفة الشّيخ لدنية من الله إلقاء وانقداحاً، إنّ الأولى يصل إليها الإمام بالوصية، والثّانية يصل إليها الشّيخ بالاجتهاد والاعتمال، ولكن المذهبين، الصّوفي والشّيعي، ينسبان للشيخ والإمام نفس العلم.

وهنا نأتي إلى طبيعة العلم عند الاثنين، فالعلم الصّوفي سري لا يطلعه الشّيخ إلا لمريديه، وقد سبقهم الغلاة في هذا، وبينما تذهب الإمامية إلى أنّ هذا العلم خاص بالإمام، ذهب الغلاة إلى أنّ هذا العلم «ممكن» أيضاً لأتباع الإمام، ولقد أدى هذا إلى عملية رفع كثير من هؤلاء الغلاة إلى مقام الإمام نفسه، وبهذا خرجوا على الطّبيعة الإبستمولوجية للإمام، ولم يعد خاصة به، ولهذا أعلن البعض منهم فكرة «الاسم الأعظم» وأنّ من عرف هذا الاسم، أحيا وأمات[٣].

ومن العجب أن تدخل فكرة الاسم الأعظم في عقائد الصّوفية، وما زالت حتّى الآن، ومن أوائل من نسب إليهم فكرة الاسم الأعظم بين الصّوفية هو إبراهيم بن أدهم «المتوفى سنة ١٦٢هـ»، وكانت الوسيلة لدى الغلاة في معرفة الاسم الأعظم هو معرفة السّحر والنّيرنجات[٤]، ثمّ حاول البعض منهم معرفة علوم الصّنعة، وقد نسبت علوم الصّنعة إلى مجموعة من الأفراد أطلق عليهم اسم الصّوفي، ومن الأمثلة على هذا جابر بن حيان الكيمائي، فقد عرف باسم جابر بن حيان الصّوفي، كما كان الصّوفي ذو النّون المصري على معرفة أيضاً بالطّلاسم والنّيرنجات والسّحر والتّنجيم.

(١) الدّكتور الشّيبي: الصّلة ٢٠/١.

(٢) الدّكتور الشّيبي: الصّلة ١٢٠/١.

(٣) النّشار: نشأة الفكر، دار السّلام «١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م»، ٧٤٩/٢- ٧٥١.

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١٤٩/٢.

وإننا نعلم أنّ الشّيعة -غلاة ومعتدلة- وضعوا المبدأ المشهور: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» وأثر هذا في الصّوفية في نظرية الشّيخ والمريد «وأنّه من لا شيخ له، لا دين له».

وقد الغلاة من الشّيعة فكرة التّأويل، وقد سبقهم إليها الشّيعة المعتدلة، ولكنهم تغالوا فيها، ورأوا أنّ للآيات باطناً لا يعلمه سوى الإمام وخاصته، ودخلت الكبالا اليهودية في عقائدهم، ففسروا الآيات القرآنية في ضوء منهج القبالا، وسنرى الصّوفية الفلسفية يفعلون هذا وبخاصة الحلاج، أعلنوا أنّ للآيات ظاهراً وباطناً، وأخذوا يفسرون هذا الباطن كما يحلو لهم مذهبهم الفلسفي، ودخلت الإسرائيليات عامة في النّظريات الغالية، كما دخلت الغنوصات وانتقلت إلى التّصوف الفلسفي.

ثمّ نأتي إلى قصة فكرة المعراج، ونحن نعلم أنّ القرآن قرر معراجاً خاصاً للرسول محمّد(ﷺ)، ولكن سرعان ما يعلن أبو منصور العجلي أنّه عرج به إلى السّماء، وأنّ الله مسح على رأسه، وقال له بالسّريانية: «أي بني، انزل فبلغ عني»، وانتقلت الفكرة للصوفية، فأعلنوا عن معراج النّفس، وإنّ من الواضح أنّ معتدلة الصّوفية قرروا أنّ هذا المعراج هو تصفية نفسية أخلاقية، بينما ذهب أصحاب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود إلى نوع من المعراج يختلف أشد الاختلاف عن الصّورة القرآنية للمعراج ويقترب من الصّورة الشّيعية الغالية.

ولقد كان سمة الغلاة أنّهم فيما يقول المؤرخون: «تنمسوا بالزّهد وأظهروا التّقشف» بحيث يقول ابن الأثير: «إنّهم تعلموا الشّعبذة والنّيرنجات والنّجوم والكيمياء فهم يحتالون على كلّ قوم بما ينفق عليهم وعلى العامة بإظهار الزّهد»[1]، ويذكر ابن حجر أنّ المغيرة تعلم السّحر وكان ساحراً[2]، وكان سبئياً وصاحب نيرنجات[3]، بل إنّ عبد الله بن معاوية نفسه كان يظهر الزهد ويلبس الصّوف، فغلاة الشّيعة إذن كانوا من أوائل من لبسوا الصّوف، وأظهروا التّزهد.

أمّا بعد: فإنّ الصّلات بين التّشيع الغالي في الكوفة وبين التّصوف الفلسفي وثيقة إلى حد كبير، وبخاصة حين ظهر أبو الخطاب الأسدي، وتلته فرق الإسماعيلية، ودخلت فكرة الإمام والوصفاء والنّقباء والحجج، وانعكست إلى حد كبير على فكرة الغوث، والأقطاب، والأبدال عن الصّوفية الفلاسفة، ولقد وضح العلامة العراقي الدّكتور كامل الشّيبي هذه الصّلات في كتابيه الممتازين: الصّلة بين التّصوف والتّشيع، والفكر الشّيعي والنّزعات الصّوفية حتّى مطلع القرن الثّاني عشر الهجري، ولكنّني أود أن أذكر أنّ هناك دائماً -كما سنرى فيما بعد- تصوفاً معتدلاً وتصوفاً غالياً، التّصوف الأوّل يستند على القرآن والسّنة وسيرة صحابة رسول الله(ﷺ) من جهة، وأئمّة آل البيت من جهة أخرى، وسنرى أنّ هذا التّصوف كان بداية لعلم نفس الإرادة ولعلم أخلاقي، والتّصوف الثّاني: هو التّصوف الغالي أو الفلسفي، وقد اتخذ كلّ مادة فلسفية وغير فلسفية وتأثر بالتّشيع الغالي، كما تأثر بالقبالا اليهودية وبالمسيحية وبالمذاهب الغنوصية شرقية وغربية، وبينما صب الأوّل تياره في الغزالي، صب الآخر مستنقعاته في محيي الدّين بن عربي، والتّصوف الإشراقي الإيراني ممثلاً في السّهرودي المقتول ومدرسته.

الفصل السّابع

ظهور كلمة الصّوفي كمصطلح في الكوفة

ظهرت كلمة الزّهد -كما رأينا- كمصطلح- في الكوفة، ودارت بالذّات حول سفيان الثّوري، وأتباعه من بعده، ثمّ انتشرت في العالم الإسلامي وسماً على مجموعات العُباد، الّذين ينضوون تحت لواء شيخ من المعاصرين لسفيان كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض وغيرهما.

وكان من سمات هؤلاء الزّهاد -إجمالاً- لبس الصّوف، وقد رأينا كيف لبس بعض عباد البصرة الصّوف، ونهاهم المشايخ عن هذا إظهاراً للشهرة، كما لبس فرقد السّبخي الصّوف، ونهي عنه أيضاً بأنّه تشبه بالنّصارى، ونهى سفيان الثّوري الإمام جعفراً الصّادق للبسه الخز فأراهُ الصوف تحت الخز، حتّى يتجنب الشّهرة، ولكن ما لبثت كلمة الصّوفي، والتّصوف أن أطلقت على مجموعة العُباد الزّهاد رواد الحياة الرّوحية في الإسلام.

وقد شغل الباحثون بالبحث في أصل الكلمة، وقد تكلمنا عن مختلف الآراء في أصلها في الفصول الأولى من هذا الكتاب، ثمّ شغلوا أيضاً بتوقيت ظهورها، وعلى من أطلقت في أوّل الأمر، وقد رأينا الكلمة أطلقت على عدد من العُباد في البصرة والكوفة، ولكن المهم أن نبين متى أطلقت كمصطلح على فرد أو أفراد، ثمّ جمع هؤلاء الأفراد ارتباط معين، أو جماعة معينة.

ويرى بعض الباحثين أيضاً أنّ الكوفة كانت منشأ كلمة التّصوف كمصطلح، ويرى الدّكتور كامل الشّيبي بأنّ: «الباحثين مختلفون في من هو أوّل من تسمى بالصّوفي، وتدور أخبارهم في هذا الشّأن حول ثلاثة من الزّهاد الكوفيين هم جابر بن حيان وأبو هاشم الصّوفي وعبدك الصّوفي»[4]، ولست أرى هذا، فقد أطلق الاسم -كما قلت- على عدد كبير من

(١) ابن الأثير: الكامل ٢١/٨.
(٢) ابن حجر: لسان الميزان ٧٥/١- ٧٨.
(٣) الطبري ١٤٩/٣.
(٤) الدّكتور كامل الشّيبي: الصّلة ٢٨٦/١.

العُباد من قبل، ولكن المشكلة هل أطلق على هؤلاء الثّلاثة بمعنى خاص، وهو طريق التّصفية بما فيه من مقامات وأحوال، وانبثاق النّظريات، بالإضافة إلى الطّريق العملي -وهو الزّهد- أليس من الأولى أن نضع المشكلة فيما يأتي:

إنّ الكلمة أطلقت أوّل الأمر -فيما يرجح- كمصطلح على طوائف ثلاث:

الطّائفة الأولى: هي طائفة أهل الصّنعة، والصّنعة هي معرفة الكيمياء والسّحر والطّلاسم، ويمثل هذه الطّائفة: جابر بن حيان.

الطّائفة الثّانية: هي طائفة الزّنادقة، وكان الزّنادقة يظهرون التّقشف والزّهد، ويعيش البعض منهم معيشة نباتية، فيمتنعون عن أكل الحيوان.. الخ.

الطّائفة الثّالثة: هي طائفة سنية، اتخذت الصّوف علماً ووسماً لها، وسميت هذه الطّائفة تبعاً لهذا باسم الصّوفية، ويمثلها أبو هاشم الصّوفي.

وسنلقي نظرة عامة على الطّوائف الثّلاث:

١- **الطّائفة الأولى: طائفة أهل الصّنعة:**

مصطلح الصّوفي والكيميائيون:

لقد رأينا أنّ الغلاة من الشّيعة كانوا يستخدمون السّحر والطّلسمات والنّيرنجات، ويحاولون أن يموهوا على العوام بكلّ هذا، وقيل: إنّ البعض تعلموا من اليهود وغير اليهود، وكان لا بد لهؤلاء الغلاة وهم يموهون بهذه الأعمال شبه الخارقة أن يظهروا للعوام «التّزهد والتّقشف ولبس الصّوف»، ونحن نعلم أنّ السّحرة منذ عهد مبكر في تاريخ الإنسانية، كانوا يقومون قبل مزاولة سحرهم بأنواع من الطّقوس والتّجرد ومحاولة الاتصال بعالم الرّوح وبالرّوحانيات.. الخ.

ومن ثمّ ورد اسم جابر بن حيان الكيميائي موسوماً بكلمة «صوفي» بل يذهب بعض الباحثين إلى أنّ جابراً كان أوّل من تسمى باسم صوفي، أمّا اسم جابر الكامل فهو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الطّرسوسي الكوفي، ولكنه عرف باسم الصّوفي، ويذكر ابن النّديم -الخراساني[١]- أمّا القفطي فيذكر جابر بن حيان الكوفي كان متقدماً في العلوم الطّبيعية، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة، وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم الباطن، وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام، كالحارث بن أسد المحاسبي، وسهل بن عبد الله التّستري ونظرائهم.

وذكر محمّد بن سعيد السّرقسطي المعروف بابن المشاط الأصطرلابي الأندلسي أنّه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفاً في عمل الأصطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير لها[٢]، أمّا ابن خلدون فيوضح لنا حقيقة الرّجل توضيحاً، لم ينتبه إليه الباحثون، فهو يذكر: «ثمّ ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السّحرة في هذه الملة، فتصفح كتب القوم، واستخرج الصّناعة، وغاص في زبدتها واستخرجها، ووضع فيها غيرها من التّآليف، وأكثر الكلام فيها، وفي صناعة السّيمياء لأنّها من توابعها، لأنّ إحالة الأجسام النّوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النّفسية، لا بالصّناعة العملية، فهو من قبيل السّحر، كما نذكره في موضعه»[٣].

إذن كان جابر بن حيان في أوّل أمره ساحراً، وكان من سمات السّحر التّحلي بقوة نفسية، واستعداد روحي معين، والنّص واضح في أنّ إحالة الأجسام النّوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النّفسية.. وكان السّحر منتشراً في الكوفة.

وكان المغيرة بن سعيد البجلي «المتوفى سنة ١١٩هـ» من غلاة الشّيعة يدعي السّحر وكان ساحراً، بل يذكر الأعمش المحدث عنه أنّه كان يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور، ويقول ابن قتيبة: إنّه كان صاحب نيرنجات، وأنّه تعلم السّحر من يهودية تعيش بالكوفة[٤]، ويذكر ابن قتيبة أنّ الغلاة «تعلموا الشّعبذة والنّيرنجات والنّجوم والكيمياء- فهم يحتالون على كلّ قوم، بما يتفق عليهم، وعلى العامة بإظهار الزّهد»[٥].

يتبين لنا من هذا كلّه أنّ السّحر كان منتشراً في أوساط الكوفة، فإذا صح أنّ ميلاد جابر بن حيان كان في حدود «١٢٠هـ»، فإننا نستنتج ببساطة أنّه كان يعيش في وسط مليء بالسّحر، انتشر فيه، واستخدمه زعماء الغلاة للتمويه على العامة، ولنشر آرائهم، وكان من طبيعة مزاولة السّحر القيام بشعائر وطقوس، وتصفية النّفس والتّزهد.

ومن العجب أن يأتي مسلمة بن أحمد المجريطي -إمام أهل الأندلس في التّعاليم والسّحريات- فيكتب كتاباً فيها يسميه «غاية الحكيم»، والحكيم ترجمة للكلمة اليونانية «سوفي»، فهل كلمة صوفي الّتي نسبت إلى السّاحر الأوّل «جابر بن حيان» هي سوفي اليونانية؟ ثمّ أشبعت السّتين فصارت صاداً، كما يذهب البيروني من الأقدمين والبعض من المحدثين؟ لا أعتقد هذا، وإنما أعتقد أنّ جابر بن حيان ليس الصّوف تزهداً، وكان الصّوف لباس مجموعة الصّوفية من المتزهدين، وكان لا بد أن يفعل هذا أمام العامة.. ثمّ لا يقدح هذا في أنّ الكلمة أطلقت فيما بعد على مجموعة الصّوفية، سواء أكانوا من أهل السّنة أم من

(١) ابن النّديم: الفهرست ص٤٩٨- ٤٩٩.

(٢) القفطي: أخبار الحكماء.

(٣) ابن خلدون: مقدمة ص٤٩٧.

(٤) النّشار: نشأة الفكر الفلسفي ٩٣/٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٥١/١.

الصّوفية الغنوصية ويختلف الأولون عن الآخرين بأنّ صوفية أهل السّنة يؤثرون في أحوال العالم بكراماتهم، لا من لدن نفسه ولا بقوته النّفسية وبإمداد الأرواح الخفية من الشّياطين، ويعبر ابن خلدون عن هذا تعبيراً دقيقاً فيقول: «وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم، وليس معدوداً من جنس السّحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي، لأنّ طريقتهم ونحلهم من آثار النّبوة، ولهم في المدد الإلهي حفظ على قدر حالهم وإيمانهم، وتمسكهم بكلمة الله، وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشّر، لا يأتيها، لأنّه متقيد فما يأتيه، يذره للأمر الإلهي، فما لا يقع لهم فيه إلا بإذن إلا يأتونه بوجه، ومن أتاه منهم، فقد عدل عن طريق الحق، وربما سلب حاله»[1].

هل توقف جابر بن حيان عند السّحر، فكان فقط كبير «السّحرة»، يبدو أنّه انتقل إلى علم قريب من السّحر، وهو الكيمياء أو علم الصّنعة، وكانت الصّنعة شغل هؤلاء الّذين حرموا الجاه والحكم والمنصب، فكان لا بد أن تنتشر في أعماق الكوفة أيضاً، باحثين عن الإكسير، ويعرف ابن خلدون هذا العلم بأنّه علم ينظر في المادة الّتي يتم بها كون الذّهب والفضة بالصّناعة، ويشرح العمل الّذي يوصل إلى ذلك، فيتصفحون المكونات كلّها بعد معرفة أمزجتها وقواها، ولعلهم يعثرون على المادة المستمدة لذلك، حتّى من الفضلات الحيوانية كالعظام والرّيش والبيض والعذرات، فضلاً عن المعادن، ثمّ يشرح الأعمال الّتي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل، مثل حل الأجرام إلى أجزائها الطّبيعية بالتّصعيد والتّقطير وجمد الذّائب منها بالتّكليس، وإمهاء الصّلب بالقهر والصّلابة، وأمثال ذلك، وفي زعمهم أنّه يخرج بهذه الصّناعات كلّها جسم طبيعي يسمونه الإكسير، وأنّه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذّهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرّصاص والقصدير والنّحاس، بعد أن يُحمى بالنّار، فيعود ذهباً إبريزاً ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا في اصطلاحاتهم «بالرّوح»، وعن الجسم الّذي يلقى عليه «بالجسد».

ولقد نقلت النّص كاملاً لكي يتبين للقارئ حقيقة هذا العلم الّذي انتشر في العالم الإسلامي، والّذي شغل به النّاس جميعاً، حتّى إنّ بعض المؤرخين يذكرون خطأ أنّ الإمامين الغزالي وفخر الدّين الرّازي قد شغلا به، على أنّ ابن خلدون يرى أنّ إمام المدونين في هذا العلم هو جابر بن حيان حتّى إنّه يختص به، فيسمون علم الصّنعة، وعلم الكيمياء باسم: «علم جابر»، ويذكر أنّ له منها سبعين رسالة، كلّها شبيهة بالألغاز، وأنّه لا يستطيع أحد أن يفتح ما أغلق منها، سوى من قرأها كلّها.

(١) ابن خلدون: مقدمة ص٥٠٢.

ثمّ يذكر ابن خلدون أنّ مسلمة المجريطي، من حكماء الأندلس «القرن الثّالث الهجري» كتب فيها أيضاً كتابه الّذي سماه: «رتبة الحكيم» أو جعله قريباً لكتابه الآخر في السّحر والطّلسمات والّذي قلنا من قبل: إنّه سماه غاية الحكيم، ويذكر ابن خلدون أن مسلمة يقول: «إنّ هاتين الصّناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة»[2].

ومن العجيب أيضاً أنّ مسلمة يستخدم أيضاً في هذا الكتاب كلمة الحكيم، والحكمة، وقد قدم لنا ابن خلدون رسالة كتبها أبو بكر بن بشرون لأبي السّمع، وكلاهما من تلاميذ مسلمة، وتشرح الرّسالة حقيقة هذه «الصّنعة»، ويعلق ابن خلدون على الرّسالة: والّذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الّذي يعضده الواقع أنّها من جنس آثار النّفوس الرّوحانية وتصرف في عالم الطّبيعة، إما من نوع الكرامة إن كانت النّفوس خيرة، أو من نوع السّحر إن كانت النّفوس شريرة فاجرة، وأمّا الكرامة فظاهرة، وأمّا السّحر، فلأنّ السّاحر كما ثبت في إمكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوته السّحرية، ولا بد له مع ذلك من مادة يقع فعله السّحري فيها، كتخليق بعض الحيوانات من مادة التّراب! ولعل من نوع الكيمياء الأوّل -كيمياء الخير- كيمياء السّعادة للغزالي، ومن النّوع الثّاني: كيمياء جابر بن حيا، وابن خلدون يذهب إلى هذا، وهو هنا ينسب كلمة الحكيم إلى جابر فيقول: «والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم، إنما نحوا هذا المنحى، ولهذا كان كلامهم فيه ألغاز حذراً عليها من إنكار الشّرائع على السّحر وأنواعه، لا أنّ ذلك يرجع إلى الضّنانة بها، كما هو رأي من لم يذهب إلى التّحقيق في ذلك»، ويوجه ابن خلدون أنظارنا إلى أنّ مسلمة سمى كتابه في الصّنعة والكيمياء برتبة الحكيم، بينما سمى كتابه في السّحر والطّلسمات بغاية الحكيم، والغاية أعم، والرّتبة أخص «إنّ مسائل الرّتبة بعض من مسائل الغاية» ولذلك يقرر ابن خلدون أنّ مدارك هذا الأمر ليس من العلوم الطّبيعية[3].

ولست أخوص هنا -كما قلت- في علم الصّنعة، وإنما أود فقط أن أشير على أنّها ارتبطت هي والسّحر والطّلاسم والنّيرنجات بأشخاص أعلنوا «التّزهد ولبسوا الصّوف»، وليس هناك من حاجة إلى إنكار وجود جابر بن حيان كشخصية تاريخية حقيقية، ولقد تنبه إلى الشّك في حقيقته وهو يؤرخ له مؤرخ العلم العربي القديم «ابن النّديم» فقال: «هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصّوفي»، ثمّ

(٢) ابن خلدون: مقدمة ص٥٠٤- ٥٠٥.

(٣) ابن خلدون: مقدمة ص١٥٣- ٥١٤.

يذكر اختلاف النّاس في أمره، فالشّيعة تدعي أنّه من كبارهم وأحد الأبواب، وأنّه كان صاحب جعفر الصّادق، وأنّه كان من أهل الكوفة، بينما يدعي الفلاسفة أنّه كان منهم، وأنّه كتب في الفلسفة والمنطق، وترك فيها مصنفات.

وزعم أهل صناعة الذّهب والفضة أنّ الرّياسة انتهت إليه في عصره، وأنّ أمره كان مكتوماً، وزعموا أنّه كان يتنقل في البلاد لا يستقر به بلد، خوفاً على نفسه من السّلطان، ثمّ إنّه كان في جملة البرامكة ومنقطعاً إليهم، ومتحققاً بجعفر بن يحيى، وأنّ من ذكر أنّ سيده هو جعفر إنما عنى البرمكي لا الصّادق.

ويذكر ابن النّديم أيضاً أنّ بعض الثّقات ممن كان يتعاطى الصّنعة يقرر أنّه كان ينزل في شارع باب الشّام في درب يعرف بدرب الذّهب، وأنّ أكثر مقام جابر إنما كان بالكوفة، لطيب هوائها، وأنّه وجد في بيته بعد زمن «هاون به ذهب»، ثمّ يذكر ابن أبي أصيبعة الرّأي الآخر الّذي ينكر وجود جابر بن حيان كحقيقة تاريخية فيقول: «ذهب جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين، إلى أنّ هذا الرّجل -يعني جابر- لا أصل له ولا حقيقة» وقال البعض الآخر: إنّه ما كتب كلّ هذه الكتب، وإن كان له حقيقة إلا كتاب الرّحمة، وإنّ بقية الكتب إنما صنفها غيره ونحلوه إياها، ويرد ابن النّديم على هذا منكراً: «وأنا أقول: إنّ رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه، ويتعب يده وجسمه بنسخه، ثمّ ينحله لغيره، إما موجوداً وإما معدوماً ضرب من الجهل، وإنّ ذلك لا يستمر على أحد، وأي فائدة في هذا، وأي عائدة» ثمّ يقرر أنّ «الرّجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر، ومصنفاته أعظم وأكثر ولهذا الرّجل كتب في مذاهب الشّيعة، وكتب في معان شتى من العلوم..»، ثمّ يذكر أنّ الرّازي يقول في كتبه المؤلفة في الصّنعة: قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان[1]، حقاً إنّ ابن النّديم لا يعطي تعليلاً لنسبة كلمة صوفي إلى جابر بن حيان، وبالتّالي إلى صلة الكيميائيين بالتّصوف، ولكنه عرض الآراء المختلفة الّتي نستطيع بقليل من النّقد الخارجي والدّاخلي لها أن نتبين حقيقة الرّجل.

لقد كان الرّجل من الدّعاة المكتومين الّذين ينتقلون في البلاد -في العهد الأموي- خوفاً من السّلطان، وهنا نتساءل: إلى أي الدّعاة المكتومين هؤلاء كان ينتسب جابر بن حيان؟ كان أهم الدّعاة المكتومين في هذا العصر في العراق -أي الكوفة- هو أبا ميسرة أبا رباح النّبال مولى الأزد وكبير دعاة أبي هاشم بن محمّد بن الحنفية وصديقه وتابعه، ونحن نعلم أنّ جابر بن حيان لقب أيضاً بالأزدي، فهو أيضاً مولى من موالي الأزد، فكانت أسرة جابر بن حيان إذن من الأبي الهاشمية، وكان الغنوص يستشري في هذه الطّائفة ويعتصرها اعتصاراً، وفي الوصية الغنوصية الغربية الّتي لفظ بها أبو هاشم حين موته لمحمّد بن علي العبّاسي، نراه يطلب منه «ثمّ هذا الرّجل ميسرة، فاجعله صاحبك بالعراق» ويذكر له أيضاً «هؤلاء رسله إلى خراسان وإليك»[2]، فكان ميسرة إذن قد أقام حلقة من الدّعاة المكتومين في خراسان نفسها، وانضم ميسرة إلى العبّاسيين، بعد أن سم سيده، بل حاول أيضاً أن يضم الجناحية[3]، وقد كان قد انضم إليها في الكوفة إلى العبّاسية، لقد كان ميسرة من أكبر رجال الحركة الشّيعية الأبي الهاشمية، بل كان مؤسس الرّاوندية الحقيقي، وقد انتشر دعاته في الكوفة، وفي بطون الأزد، كما انتشرت في خراسان.

ونحن نعلم أنّه في عام «١٠٠هـ»، وإتباعاً لوصية أبي هاشم أرسل محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس ميسرة مولى الأزد إلى العراق ومحمّد بن خنيس وأبا عكرمة السّراج وحيان العطار إلى خراسان، فلقوا من لقوا بها وانصرفوا وقد غرسوا غرساً[4]، وهنا تقابلنا لأوّل مرة شخصية حيان العطار الكوفي الخراساني، وإضافته إلى العطارة، يرجح نسبه غير العربي، فمن الأولى أن يقال إذن: إنّه كان -كميسرة- من موالي الأزد - على أية حال- إننا نكون قد عثرنا على أوّل ذكر للأصل التّاريخي «لحيان العطار» الأزدي أو مولى الأزد الكوفي الخراساني، أو بمعنى أدق نكون قد عثرنا على والد جابر بن حيان، وكانت رحلة هؤلاء في عهد عمر بن عبد العزيز.

ثمّ ما نلبث أن نجد ذكراً لرسل أبي رباح ميسرة داعية ابن هاشم في زي التّجار، ودعاهم سعيد بن عبد العزيز والي يزيد بن عبد الملك على خراسان عام ١٠٢هـ حين شك في أمرهم وسألهم عن حالهم: «فقالوا: نحن تجار، فخلّى سبيلهم، فخرجوا من خراسان»[5]، ويعني هذا أنّ حيان العطار قد تردد مرة ثانية على خراسان.

وفي عام ١١١هـ ظهر سليمان بن كثير الخزاعي وجماعة معه بخراسان يدعون إلى بني هاشم، وظهرت دعوتهم وكثر من يجيبهم، ثمّ قدم داعية بني العبّاس المشهور بكير بن هامان، وكان ظهروه نقطة تحول في الدّعوة، انتشرت كالهشيم، وأجابه خلق كثير إلى خلع بني أمية وبيعة بني هاشم، ثمّ حين حضرته الوفاة، استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال.. انتشرت الدّعوة انتشاراً كبيراً في هذه السّنة، وتولى ولاية

(١) ابن النّديم: الفهرس ص٤٩٩- ٥٠٠.

(٢) النّشار: نشأة الفكر ٣٤٢/٢.

(٣) نفس المصدر ١١٥/٣.

(٤) النّشار: نشأة الفكر ٣٤٥/٢، واليعقوبي: تاريخ ٥٢/٣.

(٥) اليعقوبي: تاريخ ٥٦/٣.

خراسان أسد بن عبد الله القسري، فبلغه خبرهم، فأخذ جماعة منهم فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم[1].

فهل كان حيان العطار من جملة من قتلوا.. لا يظهر حيان العطار في ذكر دعاة العبّاسيين بعد، ولكننا نظفر بنص يورده كلّ من الطّبري وابن الأثير وهو أنّ حيان العطار هو خال إبراهيم بن سلمة[2]، وكان إبراهيم بن سلمة من كبار دعاة العبّاسيين ورجالهم، وقد عرض عليه إبراهيم الإمام العبّاسي أن يكون أمير الشّيعة في خراسان، فأبى[3]، ثمّ يظهر ابن سلمة في الكوفة حين وصول أبي العبّاس السّفاح إليها، وكان من كبار رجال الدّولة، ويعبر عنه ابن كثير بأنّه هو رجل يخدم بني العبّاس[4].

ننتهي من هذا كلّه أنّ جابر بن حيان ولد في بيئة عبّاسية، وأنّه كان يعد من خاصة جعفر البرمكي، والبرامكة، وإننا نجد في قائمة كتبه مجموعة مهداة إلى البرامكة، كتاب إلى علي بن إسحق البرمكي، وكتاب تليين الحجارة إلى منصور بن أحمد البرمكي، وكتاب الصّناعة إلى جعفر بن يحيى البرمكي بل يذكر ابن النّديم بين أسماء الفلاسفة الّذين تكلموا في الصّنعة: «يحيى بن خالد بن برمك» وهنا يحصل إشكال: كيف يكون تلميذاً لجعفر الصّادق، وأن يذكر في كتبه أنّه تلقى علمه عن جعفر الصّادق، بينما لا تذكره كتب الشّيعة الإمامية أو الاثني عشرية، وفي الحقيقة أنّه لم يكن من الشّيعة الإمامية الفاطمية، وأمّا ما في كتبه من إشارات إلى جعفر الصّادق، فإنما هي زيادات وإضافات من الإسماعيلية فيما بعد.

ومن المؤكد أنّ رسائل جابر بن حيان[5] الّتي نشرها كراوس ليست لجابر بن حيان قطعاً، إنّ فيها منهجاً تجريبياً لم يعرفه عصر جابر بن حيان، وإنما تكون شيئاً فشيئاً لدى علماء الفقه، ثمّ طبق في العلوم التّجريبية فيما بعد أو بمعنى أدق: إنّ هذا المنهج لم يتضح إلا لدى الأشاعرة، وقد ظهر الأشاعرة بعد جابر بن حيان بزمن طويل، وإني أميل إلى الرّأي بأنّ جابر بن حيان لم يؤلف سوى «كتاب الرّحمة»، وبعض كتب في العزائم والنّيرنجات، ثمّ بعض كتب في الزّهد والمواعظ[6].

وينبغي أن نلاحظ صلات أصحاب الكيمياء والصّنعة بأصحاب الزّهد، والتّصوف، وقد ذكرت من قبل رأي ابن خلدون، ولقد سبق ابن خلدون في هذا صاحب الفهرست وهو يؤرخ للمعزمين والمشعبذين وأصحاب النّيرنجات والحيل والطّلسمات ونذكر: «أما المعزمون ممن ينتحل الشّرائع فزعموا أنّ ذلك يكون بطاعة الله جلّ اسمه والابتهال إليه، والإقسام على الأرواح والشّياطين به وترك الشّهوات ولزوم العبادات، وأنّ الجن والشّياطين يطيعونهم، أما طاعة الله -جل اسمه- لأجل الإقسام به، وإما مخافة منه تبارك وتعالى، ولأنّ في خاصية أسمائه -تقدست- وذكره جل وعلا- قمعهم وإذلالهم»[7]، فلا بد للمعزم -وهو ساحر في الحقيقة- من العبادة والابتهال وترك الشّهوات، حتّى يستخدم أسماء الله، ومن هنا ظهرت فكرة الاسم الأعظم في التّصوف[8].

ويذكر ابن النّديم أنّه كان لجابر بن حيان تلاميذ منهم الخرقي الّذي ينسب إليه سكة الخرقي بالمدينة، وابن عياض المصري، والأخميمي، ونلاحظ أنّ الأخميمي هذا هو عثمان بن سويد أبو جري الأخميمي -من أخميم المصرية، وكان مقدماً في صناعة الكيمياء- وذكر له بعض الكتب، ومن بينها كتاب صرف التّوهم عن ذي النّون المصري، وقد كان ذا النّون المصري والصّوفي المشهور كيميائياً أيضاً وساحراً، كما كان الأخميمي على صلات بابن وحشية، وابن وحشية هو أبو بكر أحمد بن علي بن المختار بن عبد الكريم بن جرثيا[9]، وكان نبطياً يتكلم لغة الكسدانيا أي الكلدانية، وأطلق عليه اسم الصّوفي وقد اشتهر ابن وحشية بالسّحر وبالصّنعة، ثمّ كان ممن صحت له الصّنعة السّائح العلوي، وهو أبو بكر علي بن محمّد الخراساني العلوي الصّوفي.. وكان ينتقل في البلاد، خوفاً من السّلطان[10].

ثمّ تأتي الصّوفية الكبار.. فنجد ذا النّون المصري القفطي.. «وكان متصوفاً وله أثر في الصّنعة»[11]، ويذكر القفطي: «ذو النّون بن إبراهيم الأخميمي المصري من طبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة»[12]، ثمّ الحلاج.. وكان رجلاً محتالاً مشعبذاً يتعاطى مذاهب الصّوفية، ويدعي كلّ علم، وكان صفراً من ذلك وكان يعرف شيئاً من صناعة الكيمياء[13]، ثمّ نرى صوفياً شيعياً وغنوصياً من الطّراز الأوّل، وكان معاصراً أيضاً للرازي هو أبو جعفر محمّد بن الشّلمغاني، والمعروف بابن أبي العزاقر «كان له قدم في صناعة الكيمياء»[14].

(١) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ ١٣٦/٥- ١٤٤.
(٢) الطّبري: تاريخ الملوك والأمم ١٣٥/٨، وابن الأثير: الكامل في التّاريخ ٥٣/٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٣٨٤/٥.
(٤) نفس المصدر ٤١٠/٥- ٤١١.
(٥) ابن النّديم: الفهرست ص٥٠١.
(٦) ابن النّديم: الفهرست ص٥٠١- ٥٠٣.
(٧) نفس المصدر ص٤٢٩.
(٨) نفس المصدر ص٥٠٠.
(٩) ابن النّديم ص٤٣٣.
(١٠) ابن النّديم: الفهرست ص٥٠٦.
(١١) نفس المصدر ص٥٠٣- ٥٠٤.
(١٢) القفطي: أخبار الحكماء ص١٢٧.
(١٣) نفس المصدر ص٢٦٩.
(١٤) القفطي: أخبار الحكماء ص٥٠٧.

نستطيع أن نصل من هذا كلّه أنّ كلمة الصّوفي أطلقت أوّل الأمر على السّحرة ورجال الصّنعة، واستمرت تلحق بهم، وكان الصّوفي في أوّل الأمر هو المعزم والطّلسمي، وكان صاحب النّيرنجات وصاحب الصّنعة ثمّ أطلقت على جميع رواد الحياة الرّوحية في الإسلام، ولكن التّعزيم والنّيرنجات والطّلاسم والصّنعة أصبحت «سمة» للصوفية الغلاة، أو للصوفية الفلاسفة.

ونلاحظ أنّ المؤرخين يوردون أسماء الفلاسفة القدامى الّذين صحت لهم الصّنعة، والفاحص لهذه الأسماء أنّهم هم أنبياء الصّابئة وحكماؤهم: هرمس وأغاذيمون.. الخ، وهؤلاء دخلوا في كتب الصّوفية الفلاسفة كأقطاب التّصوف الأقدمين، وكذلك اعتبر هرمس أيضاً منشئ النّيرنجات والطّلسمات والتّعاويذ والعزائم، وكان -كما قلت- لهذا أثره في التّصوف الفلسفي، ثمّ اثر في التّصوف الإشراقي عند السّهرودي ومدرسته، وقد تعاطى السّهرودي المقتول أيضاً ومدرسته علوم السّحر والطّلسمات والصّنعة.

٢- الطّائفة الثّانية: الزّنادقة:

كما ظهرت كلمة الصّوفي في الكوفة، لدى شيعي عبّاسي، نراها تظهر أيضاً لدى فرقة نصف شيعية صوفية، ويذكر أنّ كلمة «صوفية» ظهرت في آثار المحاسبي والجاحظ اسماً لها، وأنّ آخر شيوخ هذه الفرقة ذات الأصل الكوفي هو عبدك الصّوفي البغدادي[١].

وقد عاش عبدك -كما سنرى في بحثنا لمدرسة بغداد- في العاصمة العبّاسية «وتوفي حوالي عام ٢١٠هـ» وكان أوّل صوفي فيها فهو إذن من رجال مدرسة بغداد، وإن كانت صوفيته -كما سنرى بعد- تمثل خصائص مدرسة الكوفة.

ويرى ماسينيون: أنّ عبدك هو أوّل من أطلق عليه اسم الصّوفي، وأنّه كان يطلق في ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من الشّيعة وعلى مجموعة من الثّائرين في الإسكندرية[٢]، بزعامة رجل أندلسي «يقال له : أبو عبد الله الصّوفي، يسفك الدّماء ويقتل المسلمين»[٣]، لا شك إذن أنّ الكلمة كانت معروفة ومنتشرة، عرفت في الكوفة لدى أوساط غلاة الشّيعة، كما عرفت لدى الأندلسيين أيضاً، ولكن من المرجح كثيراً أنّها ظهرت كمصطلح في الكوفة، والأمر هنا موازٍ تماماً لزنادقة الزّهاد في البصرة، ولم يكن هؤلاء زنادقة بالمعنى المعروف كما بينا في بحثنا لمدرسة البصرة، وهنا نجد زنادقة الصّوفية في الكوفة، وسنرى أيضاً أنّهم لم يكونوا زنادقة.

٣- الطّائفة الثّالثة: الصّوفية السّنية:

وظهر الاسم «الصّوفي» منسوباً إلى أبي هاشم عثمان بن شريك، وقد اختلف في أمر أبي هاشم هذا، هل هو كوفي، أم شامي، أم بغدادي، ومما يرجح أصله الكوفي هو أنّ أهم أقواله نقلها إلينا سفيان الثّوري -الكوفي- وهو قول: «لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرّياء»، ولكن تكاد تجمع المصادر على أنّه كان أموياً، وعاش بالشّام، وبالرّملة، ثمّ انتقل في العهد العبّاسي إلى بغداد، وإنّي أفضّل أيضاً أن أعرض له في مدرسة في بغداد.

ولا شك أنّ الكوفة كانت مصدرة للتصوف إلى العاصمة الجديدة، ومنبعاً للعدد الكبير من رجال الرّوح الّذين انتقلوا منها إلى بغداد، وقد رأينا أنّ عبدك، وإن كان من قدماء مشايخ بغداد، كما قيل إلا أنّه صدر عن فرقة كوفية، كما أنّ أبا هاشم الكوفي قد نشأ في الكوفة، كما نعلم أيضاً أنّ معروفاً الكرخي- من صوفية بغداد الكبار كما سنرى- أتى إلى الكوفة، فاستمع لوعظ ابن السّماك- القاضي الكوفي المشهور- وكان استماعه إليه، نقطة التّحول في حياة معروف الرّوحية.

وعن الكوفة صدرت نماذج الحياة الرّوحية المختلفة، النّموذج الشّيعي الغالي، والنّموذج الشّيعي المعتدل -إمامياً كان أوزيدياً- والنموذج السّني الخالص.

وفي الكوفة في عهدها الأوّل اضطرمت الآراء المتباينة وانقدحت فيها الأفكار الواردة، وكان بجوارها الأديرة، وسكن فيها النّصارى واليهود، وأحاط بها الصّابئة كما عرف أهلها المندائية والدّيصانية والمانوية والمزدكية والزّرادشتية.

وكان بالقرب من الكوفة -المدائن- موطن الشّيعة الغالية، ومركزاً من مراكز الغنوص.

أطل كلّ هذا على الكوفة، ولكن بالرّغم من هذا كلّه كانت أصيلة حقاً في فكرها وفي تصوفها وفي فقهها، ولكن بدأت نضارتها تذهب شيئاً فشيئاً، وكانت بغداد عروساً مجلوة تطل على الزّمان، وكان على رجال الفكر أن ينتقلوا إليها، وعلى رجال الرّوح أن يظعنوا نحوها، وأن يتركوا الكوفة فأخذت تقفر شيئاً فشيئاً، وها هي بغداد تعيش حتّى الآن، وأصبحت الكوفة مهجورة، مقبرة للشيعة الاثني عشرية، وقرية من قرى النّجف، حيث يرقد الإمام الكبير، صاحب الرّوح لدى المسلمين سنة وشيعة، وقمة السّلاسل الصّوفية، على اختلاف نزعاتها ومشاربها وعقائدها: علي بن أبي طالب.

(١) الدّكتور الشّيبي: الصّلة ٢٩٢/١.

(٢) الشّيبي: الصّلة ٢٨٢/١.

(٣) اليعقوبي: تاريخ ١٨١/٣.

المصادر والمراجع

* نيكلسون: في التّصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة: الدّكتور عفيفي
* «أسين بلاسيوس»: ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية الدّكتور عبد الرّحمن بدوي، وفي مقدمة المترجم تاريخ لحياة «أسين بلاسيوس»
* الدّكتور حسن عثمان مقدمته للجزأين الأوّلين من الكوميديا الإلهية
* الشّشتري: الدّيوان
* السّراج الطّوسي: اللمع
* الكلاباذي: التّعرف
* القشيري: الرّسالة
* ابن خلدون: المقدمة
* أبو نعيم: حلية الأولياء
* ابن الجوزي: تلبيس إبليس
* وابن الجوزي: صفة الصّفوة
* ابن هشام: السّيرة
* البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة
* القفطي: إخبار الحكماء
* نيكلسون: الصّوفي في الإسلام
* ابن النّديم: الفهرست
* جولد تسيهر: العقيدة والشّريعة في الإسلام
* الجاحظ الحيوان
* الجاحظ البيان والتّبيين
* الجاحظ البخلاء
* البلاذري: فتوح البلدان
* إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام
* الأزرقي: تاريخ مكة
* ابن الكلبي: الأصنام
* ابن كثير: البداية والنّهاية
* الدّكتور محمّد عبد المعين خان: الأساطير العربية قبل الإسلام
* ابن سعد: طبقات
* أبو نعيم: الحلية
* والدّكتور الشّيبي: الصّلة بين التّصوف والتّشيع
* الحاج معصوم علي: طرائف الحقائق
* فلهاوزن: الدّولة العربية وسقوطها
* المبرد: الكامل
* ابن الأثير: أسد الغابة
* المقدسي: البدء
* ابن القيم: كتاب الرّوح
* الدّكتور إحسان عبّاس: الحسن البصري
* البيهقي: المحاسن والمساوي
* ابن عساكر: التّهذيب
* ابن قتيبة: عيون الأخبار
* الطّبري: تاريخ الرّسل والملوك
* السّهرودي: عوارف المعارف
* جريذ باوم: حضارة الإسلام
* ياقوت: معجم الأدباء
* الذّهبي: ميزان الاعتدال
* ابن عساكر: تاريخ
* الهجويري: كشف المحجوب
* الشّعراني: طبقات
* الملطي: التّنبيه
* الدّكتور أبو العلا عفيفي: التّصوف- الثّورة الرّوحية في الإسلام
* الدّكتور أبو العلا عفيفي: الملامتية والصّوفية وأهل الفتوة
* عبد الواحد سنبط الأربلي: خلاصة الذّهب المسبوك مختصر سير الملوك
* ابن تيمية: الصّوفية والفقراء
* الدّكتور جاد عبد العال: حركات الشّيعة الغلاة
* أبو محمّد جعفر بن أحمد بن الحسن السّراج: مصارع العشاق
* ابن خلكان: وفيات الأعيان
* اليافعي: روض الرّياحين
* الذّهبي: سير أعلام النّبلاء
* النّيسابوري: عقلاء المجانين
* الزّبيدي: إتحاف السّادة المتقين في شرح إحياء علوم الدّين
* المناوي: طبقات الأولياء
* الدّكتور بدوي: رابعة

* الدّكتور بدوي: شخصيات قلقة في الإسلام
* الدّكتور بدوي: التّراث اليوناني في الحضارة الإسلامية
* الحريفيش: الرّوض الفائق في المواعظ والرّقائق
* سعد بن عبد الله الأشعري: المقالات والفرق
* ابن تيمية: مجموعة الرّسائل والمسائل
* ابن خلدون: شفاء السّائل لتهذيب المسائل
* عز الدّين بن عبد السّلام المقدسي: شرح حال الأولياء
* الدّكتور محمّد جابر عبد العال: حركات الشّيعة المتطرفين
* السّمعاني: الأنساب
* ابن العماد: شذرات الذّهب
* الطّبري: تاريخ
* نصر بن مزاحم المنقري: واقعة صفين «تحقيق الأستاذ عبد السّلام هارون»
* البراقي: تاريخ الكوفة
* والبنهاني: جامع كرامات الأولياء
* السّلمي: الطّبقات
* سليمان الصّائغ: تاريخ الموصل
* أبوبكر محمّد جعفر النّرشخي: تاريخ بخارى
* ابن المعمار: الفتوة
* الخوانساري: الرّوضات

❖❖❖